

محاضرات في مقياس النظريات السوسيولوجية الحديثة

السنة الثانية علم الاجتماع

د. بلعيساوي الطاهر

تاريخية علم الاجتماع:

من الصعب أن نقول إن علم الاجتماع حديث تمامًا أو قديم تمامًا. فالقضايا الاجتماعية كانت دائمًا مرتبطة بالإنسان منذ وجوده الأول، لأن الإنسان يعيش في جماعة ويواجه مشكلات اجتماعية باستمرار. لكن تحويل هذا الاهتمام إلى علم منظم له قواعده ومناهجه ويُدرّس في الجامعات هو أمر حديث نسبيًا، لم يتجاوز القرنين الأخيرين. لذلك يمكن القول إن لعلم الاجتماع ماضيًا طويلًا من التفكير في المجتمع، لكنه يمتلك في الوقت نفسه تاريخًا قصيرًا كعلم أكاديمي مستقل.⁽¹⁾

المراحل التاريخية:

يعدّ علم الاجتماع حقلاً معرفياً حديث النشأة نسبياً، إلا أن جذوره الفكرية تمتد عميقاً في التاريخ. يمكن تتبع تطور هذا العلم عبر ثلاث مراحل رئيسية، وهي:⁽²⁾

أ- مرحلة ما قبل الكلمة

تتميز هذه المرحلة بوجود محاولات فكرية لفهم الظواهر الاجتماعية قبل صياغة مصطلح "علم الاجتماع" نفسه. يُعتبر "ابن خلدون" (القرن 14) من أبرز رواد هذه المرحلة، حيث قدّم في مقدمته الشهيرة ما أسماه "علم العمران البشري"، وهو تحليل عميق للمجتمعات الإنسانية وقوانين تطورها. وفي سياق متصل، يرى البعض أن "مونتسكيو" Montesquieu و"روسو" Rousseau يشكلان الرائدتين الأساسيين لعلم الاجتماع (القرن 18)، من خلال إسهاماتهما في فهم القوانين التي تحكم المجتمع. كما يمكن إرجاع بعض الأفكار إلى فلاسفة أقدم مثل "مكيافيلي" (القرن 15 و16) الذي بدأت على يده ملامح فصل السياسي عن الديني، وقد يصل آخرون في تتبع الجذور إلى "أرسطو" (القرن 4 ق.م) لما قدمه من تحاليل واقعية عن السياسي.

ب- مرحلة الكلمة

تبدأ هذه المرحلة مع صياغة مصطلح "علم الاجتماع" (Sociologie) "على يد" أوغست كونت "A.Comte في القرن التاسع عشر. عرّف كونت هذا العلم بأنه "دراسة القوانين الأساسية الخاصة بالظواهر الاجتماعية". وقد اقترح كونت في البداية مصطلح "الفيزياء الاجتماعية"، لكنه استبدله لاحقاً بمصطلح "علم الاجتماع" لتمييزه عن أعمال

-(1)

-(2)

الإحصائي البلجيكي "أدولف كيتليه" Quetelet، ويحمل عنوان كتابه الأساسي، الذي كان يستخدم مصطلح "الفيزياء الاجتماعية". وبذلك، أصبح "علم الاجتماع" هو العنوان الرسمي لهذا العلم الجديد.

ج-مرحلة المؤسساتية

تتميز هذه المرحلة بترسيخ علم الاجتماع كمؤسسة أكاديمية، حيث أصبح يُدرّس في الجامعات وتأسست له أقسام وكراسي علمية. كانت البداية في فرنسا، حيث أنشئ أول كرسي لـ "البيداغوجيا والعلوم الاجتماعية" في جامعة بوردو Bordeaux عام 1895، شغله "إميل دوركايم". ثم انتقل "دوركايم" إلى جامعة السوربون Sorbonne عام 1906، حيث حصل على كرسي باسم "علم التربية وعلم الاجتماع" عام 1913. وفي الولايات المتحدة، بدأ "سومنر" W.G.Sumner تدريس علم الاجتماع في جامعة ييل Yale عام 1876. وفي عام 1892، تأسس أول قسم لعلم الاجتماع في جامعة شيكاغو برئاسة "ألبين سمول A. W.Small".

الظروف الاجتماعية المؤثرة في نشأة النظرية في علم الاجتماع

تشكلت الأفكار النظرية في علم الاجتماع بمجموعة من القوى أو الظروف المجتمعية خلال القرن التاسع عشر. وفيما يلي عرض للظروف الاجتماعية وأثرها على النظرية في علم الاجتماع:

1-الثورات السياسية:

قامت الثورة الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر (1789م) وكان قيامها محركاً لقيام كثير من الثورات السياسية التي حدثت في القرن التاسع عشر.

كان قيام هذه الثورات عاملاً مباشراً لنشأة التنظير في علم الاجتماع. وترتب على حدوث هذه الثورات كثير من الآثار الإيجابية في المجتمعات التي قامت فيها تلك الثورات. ولكن أكثر ما لفت نظر الباحثين في علم الاجتماع تمثل في تلك الآثار السلبية والمشكلات الاجتماعية التي نجمت عن التغيرات الاجتماعية التي أحدثتها هذه الثورات السياسية وما صاحب ذلك من اتساع نطاق الفوضى والاضطراب في الحياة الاجتماعية. وقد حدثت رغبة كثير من الباحثين في علم الاجتماع -خاصة في فرنسا- بإعمال الفكر للوصول إلى ما يعيد الاستقرار والنظام في المجتمع. واندفع بعض من هؤلاء إلى الدعوة للرجوع مرة أخرى إلى حياة اجتماعية يسودها النظام والاستقرار والسلام كما تحقق ذلك بقدر كبير في العصور الوسطى. ولكن بعضاً من المفكرين أدركوا استحالة تحقيق ذلك لأن التغير الاجتماعي الذي حدث في تلك المجتمعات يجعل تلك العودة أمراً مستحيلاً. ولهذا اتجه هؤلاء إلى البحث عن أسس جديدة يمكن أن يستند إليها النظام العام في المجتمع الذي تأثر كثيراً بالثورات السياسية التي قامت في القرنين 18 و19، وهنا برزت قضية النظام العام (Social order) في المجتمع باعتبارها قضية ذات أهمية حاسمة في الحياة الاجتماعية، ولا تزال هذه القضية مثاراً لاهتمام أصحاب النظريات في علم الاجتماع منذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا.⁽¹⁾

2- الثورة الصناعية: فوضى التحول الاقتصادي والاجتماعي

لقد كانت الثورة الصناعية مثلاً نقطة تحول أساسية؛ إذ نقلت الناس من الريف إلى المدينة، وخلقت طبقة عاملة جديدة، وأدت إلى مشكلات اجتماعية مثل الفقر وسوء ظروف العمل. هذه التحولات جعلت المفكرين يبحثون عن أدوات جديدة لفهم المجتمع الصناعي الناشئ⁽²¹⁾

ومما ساهم أيضاً في تشكيل نظرية علم الاجتماع، وذلك في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين على وجه الخصوص. ولم تكن الثورة الصناعية واقعة مفردة، بل كانت مجموعة مترابطة من التطورات التي أدت إلى تحول المجتمع الغربي من مجتمع يسوده الطابع الزراعي إلى مجتمع تغلب عليه سمات النسق الصناعي. ولقد تركت أعداد كبيرة من عمال الزراعة مزارعهم وتخلت عن العمل الزراعي وسعت إلى العمل في الصناعة. كما أن المصانع ذاتها قد طرأت على المصانع ذاتها تحولات عديدة نتيجة للتطورات والابتكارات التكنولوجية. كما نشأت التنظيمات البيروقراطية الاقتصادية لتقدم الخدمات التي يطلبها النظام الرأسمالي الاقتصادي الناشئ. ونشأت السوق الحرة في إطار هذا النظام ليتم فيها تبادل ما ينتجه النظام الصناعي. كما حدث في إطار هذا النظام نوع من التفاوت الاجتماعي، حيث أفادت منه -من النظام الرأسمالي الصناعي- فئة قليلة فازدادت ثراءً ورفحاً، بينما كان من نصيب الأغلبية ساعات طويلة من العمل لقاء أجر قليل. وترتب على ذلك حدوث رد فعل ضد النظام الرأسمالي ومعاد كذلك للنظام الصناعي. وأدى ذلك بدوره إلى ظهور حركات راديكالية متعددة الأشكال تسعى جميعها للقضاء على النظام الرأسمالي.

ولقد أسهمت الثورة الصناعية والرأسمالية والحركات الراديكالية معاً في إيجاد كثير من مظاهر الاضطراب في المجتمع الغربي. وكان لهذا الاضطراب آثار واضحة في تشكيل نظرية علم الاجتماع. ويكفي أن ثلاثة من رواد النظرية في علم الاجتماع: ماركس (Karl Marx) وفير (Max Weber) ودوركايم (Emile Durkheim) لندرك مدى اهتمامهم بتلك التغيرات الاجتماعية وما أوجدته من مشكلات في المجتمع. وقد قضى هؤلاء جل حياتهم الفكرية في دراسة هذه المشكلات ووضعوا من النظريات ما يفسر نشأتها، ومن البرامج ما يحوي أفكاراً عن الإجراءات التي تواجه هذه المشكلات وتعمل على حلها.⁽³⁾

3- نشأة النظام الاشتراكي:

قامت الحركات الاشتراكية لتواجه ما نشأ عن النظام الصناعي وعن الرأسمالية من آثار سلبية على المجتمع. وانقسم أصحاب النظريات في علم الاجتماع إزاءها إلى فريقين: فريق من القلة يناصر الفكر الاشتراكي، وغالبية منهم تعادي هذا الفكر. وكان كارل ماركس (Karl Marx) يؤيد بفكره وعمله في آن معاً القضاء على النظام الرأسمالي

وإحلال النظام الاشتراكي محله، موجهاً النقد إلى جوانب المجتمع الرأسمالي المختلفة. بل لقد ساهم في كثير من الحركات السياسية التي تسعى إلى إقامة المجتمعات الاشتراكية.

ولكن فكر ماركس لم يكن يمثل الطابع الغالب على فكر رواد النظرية في علم الاجتماع، لأن معظم هؤلاء -ومنهم "فيبر" و"دوركايم" - كانوا يعارضون الاشتراكية. واتجه معظم رواد النظرية في علم الاجتماع نحو الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي في إطار النظام الرأسمالي بدلاً من السعي إلى تحقيق الثورات الاجتماعية كما سعى ماركس إليها. خشيتهم من الاشتراكية (Socialism) كانت أشد من خوفهم من الرأسمالية (Capitalism) ولقد لعبت هذه الخشية من النظام الاشتراكي دوراً مهماً في تحديد مضمون النظرية في علم الاجتماع.⁽¹⁾

بحيث يمكن القول أن نشأة النظرية في علم الاجتماع كانت في كثير من الحالات رد فعل مضاد للنظرية الاشتراكية بعامه، ولأفكار ماركس على وجه الخصوص.

4- اتساع نطاق ظاهرة التحضر:

كان من نتيجة الثورة الصناعية أن تركت أعداداً كبيرة من الناس في القرنين التاسع عشر والعشرين القرى التي كانوا يعيشون فيها، وتوجهت إلى الحياة في المناطق الحضرية. وكانت أهم أسباب هذه الهجرة الشاملة يسر الحصول على العمل في تلك المناطق حيث يوفر النظام الصناعي فرصاً عديدة لهذا العمل. ولكن تلك الأوضاع أوجدت تلك الأوضاع مشكلات عديدة واجهت المهاجرين الذين كان من اللازم لاستقرار حياتهم أن تتحقق لهم القدرة على التكيف مع أوضاع الحياة الحضرية. أضف إلى ذلك أن التوسع العمراني للمدن أدى إلى كثير من المشكلات الحضرية كالازدحام التلوث الضوضاء، مشكلات المرور وغيرها.

ولهذا فقد اهتم المفكرون في علم الاجتماع بتحليل طبيعة الحياة الحضرية ومشكلاتها. ومن أبرز هؤلاء "ماكس فيبر" و"جورج سيمل" (George Simmel) " كما اهتمت أول مدرسة نظرية في علم الاجتماع بالولايات المتحدة الأمريكية وهي مدرسة شيكاغو بدراسة طابع المدينة، متخذة من مدينة شيكاغو ذاتها معملًا لدراسة التحضر ومشكلاته.⁽²⁾

5- التغيرات الدينية:

أثرت التغيرات الاجتماعية التي أوجدتها الثورات السياسية، والثورة الصناعية، وعملية التحضر، تأثيراً واضحاً في ظاهرة التدين عند الناس. وكان كثير من علماء الاجتماع الرواد يتمسكون بالعقائد والشعائر الدينية لأن الأصول التي نشأوا في ظلها كانت تحض على ذلك، بل كان بعضهم من رجال الدين ودارسيه.

ولهذا فقد تجسدت أهداف الدين وقيمه وشكلت أفكار رواد النظرية في علم الاجتماع فكلهم سعوا إلى تحسين طابع حياة الناس ورفع مستوى هذه الحياة وكلهم أفردوا اهتماماً خاصاً بتحليل الدين. فمنهم كونت (A. Conte) الذي أراد أن يتحول علم الاجتماع إلى دين تؤمن به البشرية كلها. ومنهم دوركايم (E. Durkheim) الذي كان الدين موضوعاً لواحد من أهم مؤلفاته. كما لعبت القيم الأخلاقية المستمدة من الدين دوراً أساسياً في نظرية علم

(1)-

(2)-

الاجتماع عند دوركايم وعند "بارسونز" Parsons بعد ذلك. وكانت النظم الدينية في أجزاء العالم المختلفة موضوعاً لقدر كبير من دراسات "ماكس فيبر. Max Weber" كما اهتم ماركس Karl Marx أيضاً بالدين، ولكن اتجاهه كان نقدياً وهجومياً.⁽¹⁾

6- اتساع نطاق العلم

في الوقت الذي بدأت فيه الصياغات الأولى للنظرية في علم الاجتماع، تزايد الاهتمام بالعلم وبالمنهج العلمي، ليس في الجامعات فحسب، بل في المجتمع ككل. وقد كان لتطبيق نتائج العلم أثر في ظهور المخترعات والابتكارات التكنولوجية التي نفذت إلى كل قطاعات الحياة. وقد أدى هذا الأمر إلى اكتساب العلم قيمة كبرى، كما كان للعلماء الذين تخصصوا في العلوم الناجحة كالفيزياء والبيولوجيا والكيمياء مكانة رفيعة في المجتمع، لذلك اهتم الباحثون في علم الاجتماع بالعلم، وحاول الكثيرون أن يضعوا أسس النظرية والمنهج في علم الاجتماع اقتداء بالنموذج الناجح الذي تحقق في العلوم المتقدمة. ولكن سرعان ما ظهر اتجاه فكري آخر في علم الاجتماع يعارض الاتجاه الذي يدعو إلى محاكاة العلوم الطبيعية. مشيراً-هذا الاتجاه الآخر المعارض-إلى أن الحياة الاجتماعية لها خصائصها المتميزة مما يجعل استخدام النموذج المستخدم في العلوم الطبيعية أمراً صعب المنال، وقد يكون غير مرغوب فيه كذلك. ولهذا ظل الجدل حول العلاقة بين علم الاجتماع والعلوم الطبيعية قائماً حتى يومنا هذا.

وهكذا صاحب التغيرات الاجتماعية التي سبق ذكرها اتساع نطاق العلم. ويعني هذا نشأة العقلية العلمية متضمنة بعدين مهمين هما: (أ) اتجاه جديد للنظر إلى العالم، (ب) أساليب جديدة للحصول على المعرفة بهذا العالم. أما الاتجاه الجديد فيستند إلى إحلال التوجه العلمي محل التوجه الديني.

أما الأساليب الجديدة فقد تمثلت في جمع المعطيات الواقعية وتحليلها لتكون مصدراً رئيساً للحق والمعرفة، بدلاً من أن يكون هذا المصدر مستنداً إلى الإيمان بالمعطيات الدينية التي ترد في الكتب المقدسة، أو أن يكون مصدر المعرفة متمثلاً في التقاليد المستقرة. وأطلق اسم الوضعية (Positivism) على هذا الاتجاه الفكري الجديد.

كما أن نجاح العلوم الطبيعية مثل الفيزياء والبيولوجيا ألهم أوغست كونت وغيره من المفكرين لتطبيق المنهج العلمي على دراسة المجتمع، معتبرين أن الظواهر الاجتماعية يمكن أن تُدرس بنفس الصرامة التي تُدرس بها الظواهر الطبيعية.

فمنذ بداية القرن التاسع عشر حقق المنهج العلمي تقدماً كبيراً في مجال الفيزياء. فقد أصبح العلماء قادرين على تفسير الحركات المنتظمة في الطبيعة، مثل حركة النجوم في السماء أو سقوط الأجسام نحو الأرض، بالاعتماد على قوى طبيعية واضحة مثل قوة الجاذبية. هذه القوى يمكن للعقل البشري أن يكتشفها من خلال جمع المعلومات بدقة وتحليلها بطريقة منظمة، كما توضح قواعد البحث العلمي. وبهذا أصبح من الممكن الكشف عن قوانين ثابتة تحكم الظواهر الطبيعية، وغالباً ما يتم التعبير عنها في شكل معادلات رياضية دقيقة.

وقد شهد القرن التاسع عشر اتساع نطاق استخدام المنهج العلمي في كل مجالات الحياة، سواء كانت هذه المجالات مادية، أو حيوية، أو اجتماعية. فقد استُخدم المنهج العلمي في الفيزياء والفلك في البداية، ثم تبع ذلك استخدامه في العلوم البيولوجية، ثم ظهرت الدعوة إلى استخدامه بعد ذلك لدراسة المجتمع الإنساني.⁽¹⁾

خلاصة

يتضح لنا أن علم الاجتماع لم يظهر من فراغ، بل كان نتيجة حتمية لتضافر مجموعة من السياقات المادية والفكرية. لقد كان العلم بمثابة استجابة لـ"الخوف من الانهيار الاجتماعي" في أعقاب ثورتين أطلقنا العنان لقوى جديدة لم يسبق لها مثيل: الثورة الصناعية التي خلقت فوضى اقتصادية واجتماعية، والثورة الفرنسية التي أحدثت اضطراباً سياسياً وفكرياً .

إن فهم هذه الجذور التاريخية والفكرية ليس مجرد استعراض للماضي، بل هو أساس ضروري لفهم النظريات السوسيولوجية الحديثة التي تليها. فالقضايا التي حاول "كونت" و"دوركايم" و"ماركس" و"سبنسر" الإجابة عنها - مثل كيفية الحفاظ على النظام الاجتماعي، وأسباب الصراع، وآليات التغيير- لا تزال تشكل محور النقاش في علم الاجتماع حتى يومنا هذا، مما يؤكد أن هذا العلم قد ولد ليبقى، لأنه ولد ليفسر واقعاً معقداً لم يعد الفكر القديم قادراً على استيعابه.

النظرية في علم الاجتماع:

مفاهيمها، خصائصها، وظائفها، وتصنيفاتها، وعلاقتها بالبحث العلمي

نظرية علم الاجتماع (؟) أم النظرية الاجتماعية؟

يستخدم مصطلحا نظرية علم الاجتماع Sociological Theory والنظرية الاجتماعية Social Theory مترادفين. ولكن في الحقيقة إن المصطلح الثاني أوسع من المصطلح الأول. فمصطلح النظرية الاجتماعية يتضمن نظريات علم الاقتصاد، والسياسة، والتاريخ، وعلم النفس الاجتماعي، والعلوم الأخرى التي تعتبر المجتمع وحدتها في التحليل.

وقد أغفل بعض المنظرين هذه المسألة، واستخدموا مصطلح النظرية الاجتماعية بمعنى نظرية علم الاجتماع ومثال ذلك "ماكس بلاك" Max Black في مؤلفه "النظريات الاجتماعية لـ تالكوت بارسونز"

ويتمثل الاختلاف الأساسي بين النظريات في العلوم الاجتماعية المختلفة ونظريات علم الاجتماع في أن النظريات في العلوم الاجتماعية الأخرى ترى المجتمع من منظوراتها الخاصة. أما نظريات علم الاجتماع فهي منظورات تركيبية (توليفية). وبتعبير آخر فإن نظريات علم الاجتماع تهتم بالفاعل الكلي ونمط فعله في مواقف اجتماعية - ثقافية مختلفة، بينما تهتم نظريات العلوم الاجتماعية الأخرى بأنماط معينة من الفاعلين والأفعال:

- فنظريات علم الاقتصاد مثلاً تهتم بأنماط الاختيار (Choice Patterns) للفاعلين من حيث الوسائل والغايات، حيث يوجد لديهم عدد من الخيارات لاستخدامها.

- أما النظرية السياسية فتقتصر على أفعال الإنسان في علاقته بالدولة.

- وتهتم نظريات التاريخ بأنماط الفعل الماضية لدى شعوب مختلفة.

- أما نظرية علم النفس فتختلف عن نظرية علم الاجتماع - من حيث مدخلها في المجتمع - في نقطتين :

(أ) بينما تهتم نظرية علم الاجتماع بالكشف عن الأنماط العامة للفعل، فإن نظرية علم النفس تهتم بالفعل أو (السلوك) في حد ذاته. وتتمثل المشكلة في علم الاجتماع في تحديد مسارات الفعل التي يسير عليها الإنسان بصورة دائمة ومؤقتة. أما علم النفس من جهة أخرى فهو أقل اهتماماً بهذه المسألة حيث يهتم بنمط) أسلوب (تصرف الإنسان

(ب) يهتم علم الاجتماع بتفسير طبيعة الأسس الثقافية الاجتماعية للفعل الإنساني بينما يهتم علم النفس بصورة أساسية بالأسس الشخصية للفعل للفاعل.⁽¹⁾

معنى النظرية الاجتماعية :

اهتم كثير من المفكرين والعلماء بتعريف النظرية السوسيولوجية بهدف التفرقة بينها وبين النظرية العلمية في مجال العلوم الطبيعية وقدم هؤلاء تعريفات عديدة أهمها:⁽²⁾

- تعريف "بلاوك" للنظرية باعتبارها تحتوي على قضايا أشبه بقوانين تربط بين متغيرين أو أكثر في نفس الوقت.

- تعريف "جيب" للنظرية بأنها مجموعة من الأحكام المترابطة منهجياً لتؤكد مشاهدات واقعية تفسر خصائص معينة من الأحداث والأشياء.

- تعريف "هيج" للنظرية باعتبارها مجموعة من القضايا⁽³⁾ والأحكام النظرية في تفسير ظواهر الحياة الاجتماعية.

- تعريف "رينولدز" للنظرية باعتبارها جزءاً من المعرفة العلمية في شكل قوانين أو بديهيات أو تفسيرات سببية لعلاقة ظواهر المجتمع بعضها ببعض.

تعريف "ويلر" بأن النظرية هي مجموعة من العلاقات المتكاملة على درجة معينة من الصدق في تفسير ظواهر المجتمع ومشكلاته.

وفي ضوء هذه التعريفات يستخلص "طلعت إبراهيم وكمال إبراهيم الزيات" أن النظرية الاجتماعية تتكون من بناء تصوري لظواهر المجتمع ومشكلاته ونظمه في إطار منهجي يربط بين النظر والتطبيق بواسطة منهج علمي يحدد

(1)-

(2)-

(3)-القضايا: هي تعبير عن الواقع يتضمن مفهومين أو أكثر والعلاقة بينهما، يمكن إخضاعها للبحث العلمي، ومن ثم فالقضية تعبر عن العلاقة بين المفاهيم، وقد يشار إلى القضية أحياناً باعتبارها فرضاً، يخضع للاختبار الامبريقي، ومن ثم فقد ينظر إلى النظرية إلى أنها مجموعة من الفروض. مثال: علاقة الدين بمعدل الانتحار، أو علاقة الضغوط الاجتماعية بمعدل الانتحار.

طبيعة البناء المميز للنظرية السوسيولوجية في ضوء المنهج العلمي المميز للنظرية العلمية في مجال العلوم الطبيعية.

(1)

وظائف النظرية السوسيولوجية

- تحدد هوية العلم وموضوعاته الأساسية، في إبراز التراكم المعرفي والعلمي.
- تمد الباحث بإطار يساعده على تحديد أبعاد الظاهرة وتساعد في رصد الملاحظات وجمع البيانات وتنظيمها وتصنيفها محل الدراسة.
- تؤكد خبرات البحث العلمي بأي معلومات بدون نظرية، هي بيانات صماء فاقدة للمعنى، وكذلك وجود نظرية بدون بيانات تكون عملاً خاوياً فكلاهما مكمل للآخر.⁽²⁾

شروط النظرية السوسيولوجية

- يرى بعض الباحثين أن النظرية السوسيولوجية وجب أن تتوفر فيها الشروط الآتية:
- ينبغي أن تكون المفاهيم التي تعبر عن القضايا محددة بدقة.
- يجب أن تنسق القضايا الواحدة مع الأخرى.
- أن توضع في شكل يجعل من الممكن اشتقاق التعميمات القائمة اشتقاقاً استنباطياً.
- أن تكون هذه القضايا خصبة و متميزة، تستكشف الطريق للملاحظات أبعد مدى وتعميمات تنمي مجال المعرفة.⁽³⁾

أهمية النظرية :

تزيد النظرية من ثمره البحث وخصوبته، وذلك عن طريق:

النظرية لها دور مهم وفعال في جميع مراحل ومتطلبات وشروط تحقيق المعرفة العلمية سواء في عملية الوصف أو التفسير أو التنبؤ والضبط والتصنيف والتنظيم والتقنين والكشف، بالإضافة الى التوجيه والتحكم في التحيز ووضع القوانين والتعميمات والتعريفات والفروض والأطر التصورية لتسهيل التوصل الى المعرفة العلمية الصحيحة.

وهذا يفند رؤية الدارسين الذين ينظرون الى النظرية كأفكار وهمية ما دامت لا علاقة لها بوقائع الحياة اليومية فالوظيفة الأساسية للنظرية تتمثل في التوصل الى المعرفة العلمية الصحيحة وتحقيق أهداف العلم.⁽⁴⁾

-(1)

-(2)

-(3)

-(4)

أهداف النظرية

حدد "جانشان ترنر Jonathan Turner " أهداف النظرية الاجتماعية على النحو الآتي:

- تصنيف وتنظيم الأحداث الاجتماعية بأسلوب متسلسل بحيث تتقرب من تكوين رؤية واضحة المعالم.
- تفسير أسباب الأحداث الاجتماعية لكي تمنح قدرة على التنبؤ بالأحداث المستقبلية وكيفية وقوعها.
- تستطيع أن تقدم معنى دقيقاً حول وقوع الأحداث وبالذات حول كيفية وقوعها وأسباب حدوثها.

مراحل النظرية السوسيولوجية:

تمر النظرية السوسيولوجية بمراحل متعددة تتمثل في الآتي: (1)

(أ) الملاحظة (ب) صياغة الفروض (ج) الاستقراء (د) التعميم (هـ) بناء النظرية

(أ) -الملاحظة: وقد تكون ملاحظة مباشرة من الميدان، أو ملاحظة غير مباشرة من السجلات الرسمية.

(ب)-صياغة الفروض: وتستمد من قضايا نظرية سابقة أو من الملاحظة المباشرة، أو من الدراسات الميدانية.

(ج)-الاستقراء: ويتمثل في تحليل النتائج التي يتوصل إليها البحث والنتائج المماثلة في البحوث الأخرى.

(د)-التعميم: ويتحدد في صياغة قضايا عامة تظهر التشابهات في نتائج البحوث وفي بناءات متعددة.

(هـ)-بناء النظرية: ويتحدد في صياغة القوانين التي تحكم سير الظاهرة، وقد تكون في صياغة كيفية أو صياغة

كمية. ويعتمد بناء النظرية إلى الاستنتاج المنطقي للقضايا المترابطة في تفسير الظاهرة في ضوء مناهج وصفية

وأساليب موضوعية تصلح للقياس المنهجي في دراسة العلاقات المترابطة بين الظواهر ونتائجها التي توصلت إليها

الدراسات الأخرى.

مراحل بناء النظرية:

يتحدد بناء النظرية في علم الاجتماع في ثلاثة محاور مترابطة ومتداخلة كل منها مع الأخرى وتتمثل في الآتي: (2)

1. بناء النموذج العام للنظرية.

2. تكوين الفروض.

3. تكوين النسق الشكلي.

4. تكوين نموذج النظرية

-(1)

-(2)

الفرق بين النموذج والنظرية Theory :

إن أساس أي نظرية هو ذلك النموذج الذي تقدمه كتفسير للحقيقة الاجتماعية أو الطبيعية.⁽¹⁾ النموذج هو أداة تصويرية يوفر إطاراً للافتراضات تتحدد في نطاق المتغيرات الهامة، وتفترض علاقات معينة بين الأحداث التي تمت دراستها. بعبارة أخرى القدرة الفائقة على التمتع بخيال خصب لخلق مشاهد كانت مخفية عن الآخرين⁽²⁾

وعليه مما سبق يمكن القول أن النموذج هو الإطار التصوري الذي يضعه الباحث لتمثيل وتفسير جزء من الحقيقة الاجتماعية، وفي أغلب الأحيان يكون خطوة أولى نحو بناء النظرية. والنظرية هي المرحلة النهائية، والتي هي مجموعة القضايا المترابطة والمتناسقة منطقياً التي تتوصل إلى قوانين تحكم سير الظاهرة، وتصبح كذلك عندما يتم التأكد من صدق وثبات النموذج في الواقع الملموس. وتصبح القضايا النظرية في مستوى النظرية العلمية عندما يحدث التطابق بين النموذج النظري والنموذج الواقعي.

النموذج إذن هو أحد مكونات النظرية، ويستخدم كمحور رئيسي في بناء النظرية حيث يتكون بناء النظرية من: بناء النموذج العام، تكوين الفروض، تكوين النسق الشكلي، ثم تكوين نموذج النظرية. بدون تكوين نموذج واضح يمكن اختباره (نموذج رياضي أو وصفي تحليلي)، لا يمكن للباحث أن يقول أنه قد قام ببناء نظرية.

مثال: استخدام دراسة إميل "دوركايم" الانتحار كمثال يوضح كيفية تحوّل النموذج التصوري إلى نظرية من خلال النسق الشكلي.⁽³⁾

1- الإطار التصوري وبناء النموذج (المفاهيم والفروض)

بدأ "دوركايم" عمله بوضع نموذج تصوري للظاهرة (الانتحار)، حيث قام بـ:

- تحديد المتغيرات: استبعد العوامل غير الاجتماعية (السيكولوجية، السلالية، الوراثة).
- افتراض العلاقة السببية: افترض أن معدلات الانتحار ترتبط بعوامل اجتماعية بحتة، وهي درجة التكامل الاجتماعي⁽⁴⁾ ودرجة التنظيم المعياري (المعايير الأخلاقية).

هنا، النموذج يقوم على فكرة أن الواقع الاجتماعي (الحالة السوسيولوجية) هو المسبب للنتيجة (معدلات الانتحار).

2- تكوين النسق الشكلي (القضايا المنطقية)

لشرح ذلك طرح التساؤل التالي: كيف يمكن للنسق الشكلي أن يستخلص النتائج المكونة لبناء النظرية؟

-(1)

-(2)

-(3)

-(4) -التكامل الاجتماعي Social Integration هو الدرجة أو الآلية التي يتم بموجبها إدماج الأفراد داخل الجماعات الاجتماعية والحفاظ على الروابط بينهم. إنه قياس لمدى ترابط الأفراد بالجماعة. التعريف: يشير إلى مدى قوة الروابط الاجتماعية ومشاركة الأفراد في الأنشطة والاهتمامات المشتركة للجماعة.

لتفسير ذلك يمكن أن نتخذ من المستخلصات الأساسية التي توصل إليها دوركايم في نظريته عن الانتحار مثلاً لذلك، فمع استبعاد العامل السيكولوجي والسلالي والوراثي كعوامل مؤثرة في حدوث الانتحار، توصل دوركايم إلى نتيجة مؤداها أن معدلات الانتحار تختلف باختلاف ثلاثة عوامل اجتماعية تتمثل في:

- (أ) - الانتحار الأناني: ويختلف نسبياً مع درجة التكامل الاجتماعي في البيئة الاجتماعية
(ب) - الانتحار الغيري: ويختلف اختلافاً مباشراً مع درجة التكامل الاجتماعي في المجتمع
(ج) - الانتحار الأنومي: ويختلف اختلافاً مباشراً مع درجة الأزمات الاقتصادية وضعف المعايير الأخلاقية.
- ففي إطار هذه الاستنتاجات يتعين بناء نموذج النظرية على الشكل الآتي:
- الأوضاع الاجتماعية ← الحالة السيكولوجية ← النتيجة، وذلك على النحو التالي:

* تكامل اجتماعي منخفض + أنانية = معدلات انتحار مرتفعة

* تكامل اجتماعي مرتفع + غيرية = معدلات انتحار مرتفعة

* أزمات اقتصادية + لا معيارية = معدلات انتحار مرتفعة.

ويجدر الإشارة هنا إلى أن تقرير الحالة السيكولوجية قد استخدم في بناء النموذج لارتباطها بالعوامل الاجتماعية، وعند مطابقة النسق النظري بالنسق الواقعي، فإنه يكون من الإمكان التوصل إلى درجة من الثبات حتى تصبح النتائج مؤثرة وتصل إلى مرحلة النظرية، فتتحول الفروض إلى نسق شكلي محدد وثابت قد يرقى إلى مستوى النظرية.

3- التحول إلى النظرية (التطابق والتعميم)

لانتقال من مجرد "نموذج" إلى "نظرية علمية"، يتطلب الأمر مايلي:

- التطابق بين النموذج النظري والنموذج الواقعي: قام دوركايم بـ مطابقة هذا النسق الشكلي (الفرضيات) مع النتائج الواقعية والملاحظات الميدانية والإحصائية في المجتمعات المختلفة.

- الثبات: عندما أثبتت نتائج دوركايم أن هذه العلاقات السببية (مثل ارتفاع معدلات الانتحار بضعف التكامل الاجتماعي) لديها درجة عالية من الثبات عند إعادة اختبارها في ظروف مختلفة، ارتقى النموذج إلى مستوى النظرية.

بذلك، أصبحت دراسة الانتحار نموذجاً للنظرية الكمية، لكونها توفرت فيها درجة الثبات المطلوب

العلاقة بين النظرية والبحث العلمي:

تشكل العلاقة بين النظرية والبحث في علم الاجتماع علاقة جدلية وتكاملية، حيث لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر دون الإخلال بجوهر العملية العلمية. فالنظرية تمثل الإطار الفكري الذي يوجه الباحث نحو تحديد الإشكالية وصياغة الفرضيات واختيار المنهج المناسب، كما توفر له أدوات تحليلية لفهم وتفسير النتائج. فهي بمثابة "الروح" التي تمنح المعنى للبحث، وتساعد على تنظيم التفكير العلمي وتحديد المتغيرات ذات الأهمية.

في المقابل، يلعب البحث دوراً حيوياً في اختبار النظرية وتعديلها، بل وقد يؤدي إلى توليد نظريات جديدة نابعة من الواقع الميداني المعاش.

ومن خلال جمع البيانات وتحليلها، يثري البحث النظرية بمعلومات جديدة، مما يساهم في تطويرها وتوسيع نطاقها التفسيري. هذه العلاقة التفاعلية بين النظرية والبحث تضمن حيوية علم الاجتماع واستمرارية تراكمه المعرفي، وقد وصفها بعض الباحثين بأنها "كالارتباط بين الروح والجسد"، حيث لا يمكن لأي منهما أن يستمر دون الآخر.⁽¹⁾

تصنيف النظريات السوسولوجية

إن تصنيف وتنميط النظرية في علم الاجتماع أصبح من الأهمية بحيث يمكن عن طريقه التعرف على توجهات العالم والافتراضات التي يؤسس عليها نظريته أو المفاهيم والقضايا التي يطرحها واسلوب وطريقة تفسيره لها، كذلك منهجه في التحقق منها وإثباتها إمبيريقياً.

وقد حاول عدد من علماء الاجتماع، عمل تنميط وتصنيف للنظرية الاجتماعية مستندين في ذلك على أسس ومعايير للتصنيف تقوم على:

1- أسس ومعايير جغرافية.

2- أسس ومعايير فكرية وفلسفية.

3- أسس ومعايير تاريخية.

4- أسس ومعايير ايديولوجية.

5- أسس تقوم على المضمون السوسولوجي للنظرية وتفسير النظام الاجتماعي.

وليس بالضرورة أن يعتمد العالم في تصنيفه على معيار واحد، ولكنه قد يلجأ إلى أكثر من معيار، كاستخدام العالم مثلاً للمعيار الجغرافي، والسوسولوجي، أو المعيار التاريخي والفكري وهكذا.⁽²⁾

ونعرض فيما يلي باختصار لأهم هذه التصنيفات:

أولاً: التصنيف الجغرافي للنظرية الاجتماعية:

يتجه هذا التصنيف للاعتماد على معيار البلد الذي ظهر فيه العلم اساسي في تحديد هوية النظرية، وقد لجأ كل من "مصطفى الخشاب"، "محمد عبد الله أبو على" إلى الاعتماد على هذا الأساس في تصنيف النظرية. وقد أمكن تقسيمها في ضوء ذلك إلى:

-(1)

-(2)

1- المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع وأبرز علماءها أوجست كونت و"إميل دور كايم"، و"كلود ليفر شتراوس"، و"أرمان كوفيليه"، و"جورج فريدمان"، و"جورج جورمينتش".

2- المدرسة الانجليزية فيعلم الاجتماع، وأهم روادها "جون ستيوارت ميل"، "هربرت سبنسر"، و"مالينوفسكي"، و"رادكليف براون".

3- المدرسة الألمانية، وأهم روادها، ماكس فيبر، وفريدناند تونيز، وجورج زميل.

4- المدرسة الأمريكية، ومن أبرز علماءها: بتريم سروكين، وهربرت ميد، ووليام توماس، وروبرت ماكيفر، وتالكوت بارسونز، وروبرت ميرتون، والفن جولدز، ورايت ميلز وغيرهم.

ثانياً: التصنيف القائم على الأساس الفكري والفلسفي:

ويتجه هذا التصنيف ليوضح طبيعة الاتجاهات الفكرية التي توجه النظرية الاجتماعية، وتحدد فروضها ومستوى التحليل والتفسير، لذا نجد أن هذا التصنيف عادةً ما يلجأ إلى اعتبار النظرية السوسيولوجية تقع في أحد الأطر الفكرية الثلاثة وهي:

1- الإطار المحافظ: وتعتبر عن نظريات كالبنائية الوظيفية والعضوية والسلوكية الاجتماعية، والتفاعلات الرمزية. وهو الاتجاه الذي يسعى في تفسيره النظر للظواهر والعلاقات والسلوك الاجتماعي إلى تحقيق التوازن والتكامل في النسق وينطلق أساساً من فرضية تقوم مع فكرة الثبات.

2- الإطار الليبرالي أو الإصلاحي:

وتعتبر عنه النظريات السوسيولوجية التي تتخذ موقفاً من النظام الاجتماعي، ولكن ليس بهدف هدمه أو تغييره جذرياً، ولكن بهدف إحداث إصلاحات اجتماعية تساعد على بقاء واستمرار النظام الاجتماعي وتجديده بما يتلاءم مع التطورات العلمية والتكنولوجية، والثقافية التي تطرأ على المجتمع.

3-الإطار الراديكالي:

وتعتبر عنه النظريات السوسيولوجية التي تتخذ موقف نقديا من النظام الاجتماعي ونرى ان التناقضات القائمة فيه لا يصلح معها أي تجديد أو إصلاح، ولكن ينبغي ان يزول النظام الاجتماعي القائم زوالاً كاملاً ليقوم على انقاضه نظاماً جديداً ، ويتم ذلك الانهيار للنظام القائم عن طريق التراث والحركات الاجتماعية .

هذا ويلجأ بعض العلماء الى استخدام مرادفات اخرى لنفس التصنيف حيث يقال أحياناً على النموذج المحافظ بالنظرية المثالية ، والنموذج الراديكالي بالنظرية المادية حيث تعتمد مسلماتها على نظريته المادية التاريخية لكارل ماركس .

ثالثاً : التصنيف التاريخي :

وهو أبسط اشكال التصنيف في النظرية الاجتماعية حيث يقسمها قسمين في ضوء تطورها التاريخي وهما:

1-النظرية القديمة والكلاسيكية وهي النظريات التي ظهرت بظهور علم الاجتماع وتشمل مختلف النظريات بتوجهاتها ومدارسها وبمضامينها السوسيولوجية المتعددة. نغني بذلك النظرية الاجتماعية منذ نشأتها في منتصف

القرن 19 وحتى الثلاثينيات من القرن العشرين. وتضم النظرية العضوية والنظرية السلوكية الاجتماعية، ونظرية الصراع.

2- النظرية المعاصرة ويقصد بها التطور الحديث والمعاصر للنظرية السوسيولوجية سواء من خلال الموضوعات التي تناولتها والاسس المنهجية التي اعتمدتها، والقضايا التي ركزت عليها، والتغيرات والتحليلات التي انتهت اليها، ويؤرخ لهذه النظريات عادة بظهور النظرية الوظيفية في الولايات المتحدة الامريكية ونظرية الفعل ونظرية التفاعل الرمزي، والنظرية النقدية، وهي تلك النظريات التي بدأت في الظهور منذ الاربعينات من القرن العشرين.

. فقد ظهرت النظريات الكلاسيكية في القرن التاسع عشر مع رواد مثل أوغست كونت، كارل ماركس، إميل دوركايم، وماكس فيبر، وركزت على تفسير التحولات الكبرى الناتجة عن الثورة الصناعية، وبناء النظام الاجتماعي، مستخدمةً مناهج وضعية وتحليلًا بنيويًا للمجتمع.

أما النظريات الحديثة، التي تطورت في منتصف القرن العشرين، فقد وسّعت نطاق التحليل لتشمل البنى الاجتماعية الكبرى، مثل الدولة والتعليم والدين، مع التركيز على التماسك الاجتماعي، العقلنة، والصراع الطبقي، وسعت إلى بناء نظريات كبرى شاملة (مثل الوظيفية البنائية والماركسية البنيوية).

جاءت النظريات المعاصرة كرد فعل نقدي على الحداثة، متأثرةً بما بعد البنيوية وما بعد الحداثة، وركزت على قضايا الهوية، الجندر، العرق، العولمة، والمخاطر البيئية، مع اعتمادها على مناهج تفسيرية وتأويلية، ورفضها للنماذج الكلية، مفضّلةً التحليل التفكيكي والنقدي، والنظريات متوسطة المدى كما اقترحها ميرتون.

الفرق بين هذه المراحل ليس مجرد تطور زمني، بل هو تحول في الرؤية والمنهج؛ فالكلاسيكية سعت إلى تأسيس العلم، الحديثة إلى تعميمه، والمعاصرة إلى نقده وتفكيكه. لذا.

العلاقة بين هذه النظريات تبقى جدلية: كل مرحلة تبني على السابقة وتعيد قراءتها نقديًا

رابعاً: التصنيف الأيديولوجي:

ظهر هذا التصنيف في ظل الصراع الأيديولوجي بين قوتين سياسيتين تمثل كل منهما نظاماً اجتماعياً اقتصادياً مختلف تماماً عن الآخر. قوة تمثل النظام الرأسمالي الذي تأسس على الحرية الاقتصادية وآليات السوق والتعددية السياسية كما يتسم بطابع الاستغلال الاجتماعي. وقوة تمثل النظام الاشتراكي الذي تأسس على ملكية الدولة لوسائل الانتاج ودكتاتورية البروليتاريا، وتأكيد دور الدولة في تحقيق دور العدالة الاجتماعية.

ونظراً لأن كل نظام منهما اعتمد على نظرية اجتماعية في تحديد سماته وقسماته وأحياناً تبرير وجوده واستمراره فقد لجأ بعض العلماء لتصنيف النظرية الاجتماعية بناءً على الموقف الأيديولوجي، وأصبح هناك ما يمكن أن يسمى:

1- النظرية الرأسمالية في علم الاجتماع.

2- النظرية الاشتراكية في علم الاجتماع.

إلا أنه من المهم التأكيد على أن الخلط الذي حدث من الموقف الأيديولوجي والإطار المعرفي والمنهجي للنظرية قد أثر أحياناً تأثيراً سلبياً، وذلك في حالة طغيان الموقف الإيديولوجي على الأسس العلمية والمعرفية، ولكنه استطاع أيضاً بما لا يدع مجالاً للشك أن يحدث تطوراً هاماً في النظرية الاجتماعية بظهور تيارات نقدية اتخذت من العلم الاجتماعي موقفاً نقدياً يسعى إلى الكشف عن تناقضاته وتحيزات الاجتماعية والأيديولوجية في آن واحد.

خامساً: التصنيف القائم على المرجعية السوسيولوجية والموقف من علم الاجتماع:

هذا التصنيف اعتمد إلى حد كبير على المضمون السوسيولوجي الذي تحتوي عليه النظرية الاجتماعية من حيث الموضوع والقضايا، والمفاهيم، والفروض، والطرق، والأساليب المنهجية، ومستوى التحليل (ماكرو - ميكرو) - النظرية الماكرو **Macro Sociology** تهتم بدراسة البنى الاجتماعية الكبرى مثل الدولة، الاقتصاد، الطبقات، والمؤسسات، وتسعى إلى فهم كيف تعمل هذه البنى في إنتاج النظام أو الصراع داخل المجتمع. وتستخدم فيها مناهج كمية وتحليل بنيوي، كما في النظرية الوظيفية البنائية التي ترى أن كل عنصر في المجتمع يؤدي وظيفة للحفاظ على التوازن، أو في الماركسية التي تفسر المجتمع من خلال علاقات الإنتاج والصراع الطبقي - النظرية الميكرو **Micro Sociology** فتركز على التفاعلات اليومية بين الأفراد، وعلى كيفية إنتاج المعاني والرموز في الحياة الاجتماعية، كما تجسدها التفاعلية الرمزية التي ترى أن "الواقع الاجتماعي يُبنى من خلال التفاعل الرمزي بين الأفراد"

.وتستخدم فيها مناهج كيفية وتأويلية مثل الملاحظة بالمشاركة والمقابلات المفتوحة، وتهتم بفهم التجربة الفردية والهوية والسلوك في سياق الحياة اليومية.

ويشير جورج ريتزر إلى هذا الفرق بقوله:

"الماكروسوسيولوجيا تهتم بالبنى الاجتماعية الكبرى، بينما تركز الميكروسوسيولوجيا على التفاعل الرمزي والمعاني التي يصنعها الأفراد في حياتهم اليومية"

مثال: ظاهرة التنمر المدرسي

- وفقاً للنظرية الماكروسوسيولوجية، ينظر إلى التنمر باعتباره انعكاساً لاختلالات بنيوية داخل النظام التربوي والاجتماعي، حيث يُفسَّر من خلال ضعف التماسك الاجتماعي داخل المؤسسة التعليمية (كما عند دوركهيم)، أو كامتداد لصراع طبقي بين فئات التلاميذ (وفقاً للماركسية)، أو كنتيجة لجمود البيروقراطية المدرسية في التعامل مع الحالات الفردية (كما عند فيبر). هذا التحليل يركز على البنى والمؤسسات، ويقترح حلولاً من خلال إصلاح السياسات التعليمية وتفعيل دور الضبط الاجتماعي

وفقاً للنظرية الميكروسوسيولوجية، فإن التنمر يفهم على أنه سلوك ينتج من خلال التفاعلات الرمزية اليومية بين التلاميذ، حيث يسعى المتنمر إلى فرض صورة معينة عن ذاته أمام الآخرين، وتبنى هوية الضحية من خلال وصمها داخل الجماعة المدرسية. هذا التحليل يركز على المعاني والسلوكيات الفردية، ويقترح تدخلات تربوية تعتمد على فهم ديناميكيات العلاقات بين التلاميذ وتعزيز التواصل الإيجابي. يُظهر هذا المثال أن الظاهرة الاجتماعية

الواحدة يمكن تفسيرها من زوايا مختلفة حسب مستوى التحليل، مما يؤكد أهمية التكامل بين الماكرو والميكرو في فهم الواقع الاجتماعي.

الاتجاهات الكلاسيكية في علم الاجتماع

دور كايم امتداد للوضعية واستقلالية علم الاجتماع:

نبذة عن عالم الاجتماع ايميل دوركايم (1858-1917)

أولاً: حياته

ايميل دوركايم يهودي فرنسي ولد في 13 أبريل 1858 في مدينة ايبينال بمقاطعة اللورين في جنوب شرقي من فرنسا من أسرة يهودية متمسك بتقاليد الدين، وقد أحب دوركايم منذ حداثة مهنة التدريس فصمم على أن يصبح مدرساً وليس رجل دين كما كانت ترغب أسرته، وظل حتى الثامنة عشر من عمره طالباً متفوقاً بمدرسة ايبينال ثم قرر أن يلتحق إلى باريس حيث التحق بالثانوية في خطوة لالتحاق بعد ذلك بمدرسة المعلمين العليا والتي كانت تمثل في ذلك الوقت قمة اختبار الطلاب الأكاديميين في فرنسا، وقد تمكن دوركايم من الالتحاق بها بعد أن اجتاز اختبار تمهيد عام 1671، وكان قد بلغ من العمر 11 سنة وقد كانت المدرسة مركزاً هائلاً للفكر في ذلك الوقت. استكمل دراسته في مدرسة المعلمين العليا بباريس ثم سافر إلى ألمانيا حيث درس الاقتصاد والفولكلور والأنثروبولوجيا الثقافية ثم عين أستاذاً بجامعة بوردو عام 1667 والتي كانت أول جامعة فرنسية تطرح مقررات منتظمة في مجال العلوم الاجتماعية وبخاصة في علم الاجتماع، والتحق بجامعة باريس عام 1902. إلا أن التدريس العلم الاجتماعي أساساً علمياً يتمثل في تدعيم فلسفات التحديث في إصلاح التعليم فقط تدرجت المحاضرات الأولى متنوعة تنوعاً واسعاً وقد تدرجت بدءاً بالأخلاق والتغيير الاجتماعي والانتحار والأسرة والتربية وانتهاءً بالاشتراكية وتاريخ علم الاجتماع ذاته.

أهم مؤلفاته

لعالم الاجتماع الفرنسي ايميل دوركايم الكثير من الكتب والمؤلفات الخاصة به ومن بينها مايلي:

- 1_ خلال عام 1893 عمل على إصدار كتاب تقسيم العمل في المجتمع؛ والذي أسس مفهومه عن نوعين من المجتمعات. النوع الأكثر بسالة يتميز بالتضامن الآلي، وهو ذو بناء اجتماعي غير متباين نسبياً ينعلم فيه تقسيم العمل؛ والنوع الثاني: يتميز بالتضامن العضوي وبه تقسيم واسع للعمل.
- 1_ وخلال عام 1893 تمكن من إصدار كتاب آخر والذي كان بعنوان قواعد المنهج في علم الاجتماع تحدث فيه عن كيفية التحليل المنهجي للظواهر الاجتماعية.
- 3_ وبعدها بعامين فقط 1897 تمكن من إصدار ثالث كتاب وهو كتاب الانتحار
- 4_ بعد فترة كبيرة و بعد توقيف دام لفترة عن الكتابة قام عالم الج. ايميل دوركايم بإصدار كتاب الأولية للحياة الدينية خلال عام 1912 ثم في سنة 1925 التربية والأخلاق.

5_ وقد ظلت كتابات عالم ايميل دوركايم في الانتشار حتى صدور آخر كتاب له والذي كان تحت عنوان الاشتراكية خلال عام 1928.

دور كايم امتداد الوضعية

إن القول بتبني دوركايم لالتجاه الوضعي لا يعني انه ردد آراء كونت بل استلم روح الوضعية عنها، كما ركز على أهمية تحليل العلاقات القائمة بين النظم الاجتماعية من ناحية؛ وبينها وبين البيئة الموجود فيها من ناحية أخرى، وعندما جعل من نظريته محاولة استعادة التوازن والاستقرار بين القوى المتصارعة، وفي إضفاء الطابع العلمي على دراسة المجتمع من وجهة نظر محافظة إلى حد بعيد.

ولقد حاول دور كايم أن ينفي الوضعية ويخلصها من الشوائب الفلسفية والتي أضافها عليها كونت وقد تجلى ذلك فيما يلي:

- اختفت أو ضعفت النزعة التطورية في أعمال دوركايم وظهر اهتمامه بالدراسات المقارنة، ذلك الذي اتضح بجلاء في دراسة دوركايم لتقسيم العمل، والانتحار، والدين.

- معارضة النزعة التنبئية حيث ذهب دوركايم إلى أن العلم لم يصل إلى مرحلة النضوج بحيث يمكن أن يتنبأ بالمستقبل، فإذا كان كونت قد رفع شعار النظام والتقدم، فإن دور كايم لم يعر أهمية للتقدم، وركز على النظام وبهذا يكون دوركايم قد أجهض النظرية التطورية للوضعية وقلب مفهومها عن الماضي رأساً على عقب.

- أخفى دوركايم طابع العلمانية على العلم، فإذا كان كونت، وسان سيمون قد ربطا علم الاجتماع بالدين إلى درجة أنهما اعتبرا ديانة جديدة للإنسانية، فإن دوركايم عالج الدين كظاهرة اجتماعية مثل كل ظواهر المجتمع.

- أعطى دور كايم الوضعية منحنى علمياً فبذل قصارى جهده لتحديد موضوع ومنهج علم الاجتماع فمن حيث الموضوع حدد خصائص الظاهرة الاجتماعية، ومن حيث المنهج ركز دور كايم على الموضوعية والعلمية في دراسة الظواهر الاجتماعية إلى درجة أنه ذهب إلى أننا يجب أن نعتبرها أشياء خارجية منفصلة عن شعورنا الذاتي، وأنه يجب على الباحث أن يتحرر من كل فكرة سابقة عن الظاهرة كي لا يقع أسير أفكاره الخاصة، هكذا استمرت الوضعية في أعمال دوركايم كما سنرى في أعماله.

مفهوم الواقعة الاجتماعية وخصائصها عند دوركايم:

وحدة التحليل الاجتماعي عند دوركايم هي الوقائع الاجتماعية والواقعة الاجتماعية هي كما يقول:

كل وسيلة أو كل أسلوب للتصرف Acting تمارس فرضاً أو اجباراً خارجياً على الفرد أو كل وسيلة للتصرف تصف بالعمومية في مجتمع ما، ولكنها توجد في نفس الوقت مستقلة بذاتها.

ورأى دوركايم أن الوقائع الاجتماعية غير قابلة للملاحظة المباشرة وبالتالي لا بد من دراستها بشكل غير مباشر عن طريق ملاحظة أثارها، ومن هنا فإن الواقعة الاجتماعية تتصف بصفتين أساسيتين:

أنها خارجة عن الفرد وأنها ملزمة له أو ذات تأثير محدد لسلوكه.

وقد شرح دوركايم الصفة الأولى للوقائع الاجتماعية أي خارجة عن الفرد بقوله. " حين أقوم بالتزاماتي كأخ أو أب أو حين أوفي بتعاقداتي فإنني أقوم بواجبات لم أحدها أنا بنفسي أو لم تحددها أفعالي ولكنها محددة لي سلفا في القانون وفي العرف وفي العادات الجمعية ".⁽¹⁾

والوقائع الاجتماعية في نظر دوركايم هي انعكاسات أو تعبيرات عن أخلاقيات الجماعة، والأخلاقيات بالنسبة لدوركايم تشمل كل المدى المعياري ابتداء من القواعد البسيطة للسلوك الاجتماعي (التيكيت) حتى أكثر العادات الاجتماعية صرامة وشدة. (1)

وبهذه المميزات يمكن أن نحدد خصائص هذه الظاهرة في النقاط التالية:

✓ 1- أنها جماعية: أي أنها تختص بسلوك وبنية الجماعة وليس الفرد وتظهر هذه الظاهرة في السلوكيات الجماعية ذات اتساق وانسجام، ولها أبعاد منهجية تختص بعلم الاجتماع عنده وهي. علم الجماعة وليس علم الأفراد وبذلك يميزه عن علم النفس.

✓ 2- الالتزام: ويكون بمعنى حالة القهر والجبر التي يمارسها السلوك الجماعي كظاهرة اجتماعية على الأفراد وانتقال التقليد والسلوك الاجتماعي بما يسمى العدوى الاجتماعية.

مثال: الزواج كنظام اجتماعي: يمارس المجتمع ضغطا قويا على الأفراد غير المتزوجين بعد سن معين (القهر المعنوي). كما أن القوانين تفرض شكلاً محدداً للزواج (مدني أو ديني) ولا تعترف بأي شكل آخر (القهر الرسمي).

وإذا رفض الفرد الزواج كلياً، قد يوصم بصفات سلبية ("عازب"، "غير مسؤول")، وإذا حاول الزواج خارج القواعد الرسمية (زواج غير موثق)، سيعاقب قانونياً ويفقد حقوقه وأبنائه.

✓ 3- الطابع الإنساني: هذه الخاصية تميزه حيث أن الظاهرة الاجتماعية تتعلق بالمجتمع الإنساني دون غيره من المجتمعات الأخرى، كما يتميز منهجها الذي يختص بالبحث الاجتماعي الإنساني عن غيره من البحوث والمناهج التي تختص عن بقية المناهج البحثية الأخرى.

✓ 4- التلقائية: وتشكل هنا الظاهرة الاجتماعية حالة تلقائية وطبيعية لوجود الحياة الاجتماعية. وعادة التفاعل الاجتماعي بين أفراد المجتمع.

✓ 5- الترابط: ويكمن في الظاهرة الاجتماعية الترابط أي أن عناصرها مترابط ترابطاً عضوياً ووظيفياً وعموماً فالظاهرة الاجتماعية تشتق بين المظاهر الجمعية-المعتقدات، الممارسات الجمعية. ويمكن التعرف عليها بواسطة القوة القاهرة التي تمارسها على الأفراد والمتجسدة في أنماط السلوك.

ومن الأمثلة على الحقائق الاجتماعية، القانون، والأخلاق، والمعتقدات، والأعراف والموضات " لقد توسع دوركايم فيما بعد في معنى الحقائق الاجتماعية. واستخدم مصطلح المؤسسة Institution ويعني به "المعتقدات وأنماط السلوك المؤسسة من قبل المجموعة الاجتماعية" كما عرف علم الاجتماع بأنه، علم دراسة المؤسسات، من حيث، أصولها وآلية عملها وهكذا نظر دوركايم إلى ظواهر المستوى البنائي بعيد المدى Macrostructural كموضوع ملائم لدراسة علم الاجتماع".⁽¹⁾

القواعد الخاصة بتفسير الظواهر الاجتماعية:

رأى دوركايم أن تفسر الظواهر الاجتماعية يجب أن يكون عن طريق:⁽²⁾

-القاعدة الأولى: ملاحظة الظواهر المجتمعية على، أساس أشياء أو موضوعات مادية يمكن إخضاعها للملاحظة الخارجية. وفي هذا، النطاق يقول دوركايم: إن الظواهر الاجتماعية تشكل أشياء، ويجب أن تدرس، كأشياء... لأن كل ما يعطي لنا أو يفرض نفسه على الملاحظة يعتبر في عداد الأشياء... وإذا يجب علينا أن ندرس الظواهر الاجتماعية في انفصال تام عن الأفراد الواعين الذين يمثلونها، ينبغي أن ندرسها من الخارج كأشياء منفصلة، عنا...إن هذه القاعدة تنطبق على الواقع الاجتماعي برمته وبدون استثناء".

- القاعدة الثانية أن يتحرر عالم الاجتماع بصفة مطردة من كل فكرة سابقة، بممارسة الشك المنهجي قصد الوصول إلى اليقين كما قال "ديكارت" Descartes

-القاعدة الثالثة: دراسة الوقائع المجتمعية التي تشترك في خواص معينة دراسة علمية موضوعية، بملاحظتها، وتصنيفها، وتفسيرها.

بمعنى آخر قبل ان نبدأ في دراسة مجموعة من الوقائع الاجتماعية، يجب على الباحث أن يعرفها بوضوح ودقة بناء على خواصها الخارجية المشتركة فقط، دون الرجوع إلى غاياتها أو وظائفها.

- القاعدة الرابعة: في دراسة الظواهر المجتمعية التي تتميز بالتكرار، والعمومية والجبرية والإلزام....(تم شرحها من خلال العنصر السابق) بملاحظتها خارجيا. بعيدا عن العوامل الفردية، .. والسيكولوجية.

هذه القاعدة تؤكد على أن الظواهر التي يدرسها علم الاجتماع هي تلك التي تتميز بالتكرار، والعمومية، والإلزام القهر.... الأهم هو أن تفسر هذه الظواهر بظواهر اجتماعية أخرى وليس بعوامل فردية أو نفسية.

-القاعدة الخامسة: التفريق بين الظواهر المجتمعية السليمة وبين الظواهر المجتمعية المعتلة.

الظاهرة السليمة: هي تلك التي توجد وتنتشر في الغالبية العظمى من المجتمعات من نفس النوع، وتساهم في الحفاظ على التوازن. مثال: وجود نظام قانوني

الظاهرة المعتلة: هي تلك التي تنحرف عن المعدل المتوسط وتعيق التكيف والتوازن الاجتماعي. مثال: ارتفاع معدل الجريمة بشكل غير مسبق.

وتكمن أهمية هذه القاعدة في منع الباحث من إصدار أحكام مسبقة، بل تدفعه لاستخدام الإحصاء والمعارية الاجتماعية لتحديد "الطبيعي" و"غير الطبيعي" للمجتمع قيد الدراسة.

- القاعدة السادسة: تصنيف المجتمعات من حيث البنية والوظيفة.

لتجنب مقارنة الظواهر في سياقات غير متجانسة مثل مقارنة زواج تقليدي بأخر حديث، يجب على الباحث أولاً أن يصنف المجتمعات بناء على بنيتها ووظيفتها.

وفي هذا الصدد دعا "دوركايم" إلى تصنيف المجتمعات بدءاً من أبسطها كالمجتمع القبلي إلى أكثرها تعقيداً كالمجتمع الصناعي بالنسبة لدوركايم لا يمكن تفسير ظاهرة في مجتمع "ميكانيني التضامن" بنفس الطريقة التي تفسرها في مجتمع "عضوي التضامن". التصنيف يضمن المقارنة العلمية الصحيحة.

الأشكال الأولية للحياة الدينية:

رفض إميل دوركايم في كتابه "الصور الأولية للحياة الدينية" (1912م) أي تفسير فردي أو نفسي للظاهرة الدينية، مؤكداً أنها ظاهرة اجتماعية بحتة يمكن دراستها علمياً وموضوعياً، شأنها شأن أي ظاهرة طبيعية. يرى دوركايم أن الدين ظاهرة جماعية؛ لأن فكرة المقدس هي العنصر المشترك في كل العقائد، وهذا المقدس لا يمكن أن يكون نتاجاً سوى للحياة الجماعية. وللوصول إلى أصل الدين، طبق دوركايم منهجه الوضعي الصارم بالتركيز على أبسط الأشكال الدينية في المجتمعات البدائية، وتحديد نظام الطوطمية⁽¹⁾ لدى عشائر أستراليا وقبائل الهنود الحمر. توصل من خلال هذا التحليل الإثنولوجي إلى أن المعبود الذي يمثله الطوطم (كرمز نباتي أو حيواني) هو في الحقيقة المجتمع نفسه، الذي يجسد في هذا الرمز كل خصائص القوة الإلهية: فهو مصدر الإلزام والقانون، وهو الذي يعلمنا السيطرة على الغرائز، ويلزمنا بالتوافق مع مصالح عليا غير مصالحنا الفردية. ومن هنا، يترادف الدين مع المجتمع؛ فالأشكال الدينية هي تعبير عن الأشكال المجتمعية، والمانا (الطاقة المقدسة) هي القوة الأخلاقية والإلزامية للمجتمع في حالتها الروحانية. هذا التركيز على القوة الاجتماعية للدين يأتي ضمن الخلفية الإيديولوجية الوضعية والعلمانية لدوركايم، الذي سعى إلى علمنة المجتمع وتثبيت سلطة العلم، وقلب الأدوار بجعل **علم الاجتماع التفسير الوحيد والنهائي للظواهر الدينية والأخلاقية. وبالتالي، يعتبر دوركايم المؤسس الحقيقي لعلم

(1) - الطوطم ليس هو الإله بحد ذاته، بل هو التمثيل المرئي لقوة مقدسة غير شخصية، تُعرف أحياناً باسم "المانا". هذه القوة هي مصدر الحياة والطاقة والروحانية للجماعة.

- المانا : هي القوة التي يشعر بها أفراد العشيرة في لحظات "الغليان الجماعي"، أي في أثناء الطقوس والاجتماعات الاحتفالية. إنها شعور عظيم يتجاوز الفرد ويجعله يشعر بأن هناك قوة خارجية تسيطر عليه وتفرض عليه القوانين.

الاجتماع التجريبي والوضعي، حيث وضع له القواعد المنهجية الصارمة التي حررتة من سلطة اللاهوت والفلسفة، ومنحته استقلاليته كعلم.⁽¹⁾

الاتجاه التطوري في علم الاجتماع

النظرية الاجتماعية عند "هربرت سبنسر" (1820-1903)

تمهيد

ظهرت نظرية "هربرت سبنسر" Herbert Spencer الاجتماعية في القرن التاسع عشر، وهو قرن اتسم بتحولات بنيوية عميقة، من أبرزها: الثورة الصناعية، والتوسع الاستعماري السريع، وتزايد التحضر والتصنيع، وانتشار الرأسمالية بوصفها نمطا اقتصاديا مهيمنًا. وفي خضم هذه التحولات، سعى سبنسر إلى بناء إطار نظري شامل يمكن من فهم الطبيعة المتغيرة للمجتمعات الحديثة.

لقد شكلت نظرية سبنسر مشروعا فكريا طموحا يهدف إلى توحيد مستويات الوجود والمعرفة-من الكون، إلى الحياة، وصولا إلى المجتمع-تحت مظلة قانون كلي واحد هو "قانون التطور". ولم يكن سبنسر عالم اجتماع تقليديا، بل كان فيلسوفا كونيا ذا نزعة تفسيرية شمولية، عمل على تأسيس علم الاجتماع بوصفه فرعًا من منظومة التفسير الطبيعي، مستندا إلى مبادئ مستمدة من الفيزياء والبيولوجيا السائدة في عصره.

- نبذة عن حياته:

ولد هربرت "سبنسر" Spencer ١٨٢٠ - ١٩٠٣، ثاني الأبناء المؤسسين لعلم الاجتماع، لأسرة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة، ولم يلتحق قط بأي مدرسة رسمية، بل تلقى تعليمًا منزليًا والتحق لفترات قصيرة بالمدارس الخاصة. وقد تلقى تعليمًا من الدرجة الأولى في العلوم التي عرف في مد كراهته الشخصية، فلم يدرس العلوم الطبيعية أو الأدب أو التاريخ دراسة منظمة. ومن الحقائق المدهشة أنه أخرج مؤلفات بارزة في الأحياء وعلم النفس.

وكان سبنسر الابن الأكبر بين تسعة أطفال توفي ثمانيتهم قبل بلوغهم سن الرشد، وقد قدر له أن يكون الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من بينهم. ويرجح بعض النقاد أن بقاءه على قيد الحياة من بين تسعة أخوة كان في أصل نزوعه إلى الاعتقاد بفكرة "البقاء للأصلح" في نظريته التطورية المشهورة.

وكان سبنسر لا يزال يافعاً حينما التحق يعمل في مجال هندسة السكك الحديدية، ثم انتقل إلى العمل بالصحافة، حيث أصبح رئيساً لتحرير مجلة الإيكونوميست Economist وهي من أشهر المطبوعات الإنجليزية. ثم استقال من عمله هذا بعد سنوات قليلة ليعمل كاتباً مستقلاً. ولم يعان سبنسر من الفقر قط، كما أنه لم يتحقق من عمله ثراء. وقد نشرت أعماله الكبرى على دفعات، إلا أنها لم تكن منتظمة الصدور أو ثابتة حتى استقر دخله حينما تزايد عدد المتابعين لأعماله، وكان أغلبهم من الأمريكيين.

أعمال سبنسر:

بدأ سبنسر ينشر سلسلة من المقالات عام ١٨٤٢ في مجلة The Nonconformist كان أطولها «البيان الصحيح للحكومة»،... ونشر عام ١٨٥٠ أول كتاب له بعنوان «الاستاتيكا الاجتماعية Social Statica» قدم فيه عرضاً تمهيدياً لنظريته السوسيولوجية، -المبادئ الأولى نشرت عام ١٨٦٢ -مبادئ علم الأحياء ١٨٦٤ -مبادئ علم النفس ١٨٧٠ -مبادئ علم الاجتماع ١٨٧٦، -مبادئ علم الأخلاق ١٨٧٩.⁽¹⁾

- مفاهيم النظرية:

يعد "هربرت سبنسر" من أبرز المفكرين الذين سعوا إلى بناء نظرية شاملة لفهم المجتمع وتطوره، وقد استند في ذلك إلى مجموعة من المفاهيم الرئيسة التي تشكلت في إطار نظريته التطورية والفردية. وفيما يلي، نتعرف على أهم المفاهيم التي بنى عليها سبنسر نظريته في علم الاجتماع، وكيف استخدمها لتفسير بنية المجتمع ووظائفه وتطوره.

- قانون التطور البيولوجي والاجتماعي: التطور من التجانس إلى اللاتجانس:

تبنى سبنسر مفهوم "التطور الكوني" الذي يتميز بمسارين رئيسيين يطبقان على الكائنات والمجتمعات:

- التمايز: **Differentiation** الانتقال من الهياكل البسيطة المتجانسة إلى أجزاء متخصصة ووظائف مختلفة.

- التكامل: **Integration** اندماج هذه الأجزاء المتميزة لتشكيل كل متماسك ومتجانس.⁽²⁾

- الظواهر فوق العضوية أو التطور فوق العضوي:

تشير الظواهر فوق العضوية، أو ما يسمى بالتطور الفوق عضوي، إلى كل ما يتعلق بالحياة الجماعية والمنتج الثقافي والاجتماعي الناتج عن تفاعل الأفراد، متجاوزا في ذلك حدود الحياة البيولوجية للفرد. ويعد دراسة هذه الظواهر هو موضوع علم الاجتماع عند هربرت سبنسر.

سعى سبنسر إلى إدراج علم الاجتماع ضمن خطة التطور الكونية الشاملة، ولذلك قسم الوجود إلى ثلاثة مستويات متصلة:

- المستوى غير العضوي: ويتعلق بتطور المادة غير الحية، مثل الكواكب والصخور والتفاعلات الكيميائية، ويدرسه علما الفيزياء والكيمياء.

- المستوى العضوي: ويتعلق بتطور الكائنات الحية كأفراد، مثل النباتات والحيوانات والإنسان ككائن بيولوجي، ويدرسه علما البيولوجيا وعلم النفس.

- المستوى فوق العضوي: ويتعلق بالنتائج الناتجة عن تجمع الكائنات الحية، أي المجتمع والثقافة والنظم الاجتماعية، ويختص بدراسته علم الاجتماع.⁽³⁾

-(1)-

-(2)-

-(3)-

وعليه يمكن القول إن "سبنسر" عند استخدامه لهذا المصطلح يؤكد أن المجتمع ليس مجرد تجمع للأفراد (العضوي)، بل هو كيان جديد يتطور وفق قوانين خاصة به، تختلف عن قوانين البيولوجيا الفردية. ولذلك، فعندما يقول إن علم الاجتماع يدرس التطور الفوق عضوي، فهو يعني دراسة كيفية تطور هذا الكيان المعقد والمتخصص، الذي يتجسد في النظم والعادات والثقافة.

- المجتمع ككائن حي "المماثلة العضوية"

استخدم "سبنسر" مفهوم المماثلة العضوية حيث شبه المجتمع بالكائن الحي. ولكنه أشار إلى أن المجتمع هو كيان "فوق عضوي"، أي أنه يشبه الكائن الحي في طريقة نموه وتخصصه، لكنه ليس جسداً حقيقياً فالمجتمع يشترك مع الكائن الحي في ثلاثة مبادئ نمو أساسية:

- النمو: كلاهما ينمو ويزداد حجمه (القرية تصبح مدينة، والمدينة تصبح إمبراطورية.....)

- التخصص (التعقيد): كلاهما يتجه نحو ازدياد التخصص في البناء والوظائف.

- التكامل (الاعتماد المتبادل): تتوقف أجزاء كل منهما على بعضها البعض.⁽¹⁾

نظرية سبنسر في طبيعة المجتمع:

- المحددات النظرية: ان نظرية سبنسر في المجتمع تنبع أصلاً من فلسفته في التطور الاجتماعي هذه الفلسفة ستؤدي حتماً إلى مماثلة بين المجتمع والكائن الحي ولكن بشرط. أي ان المجتمع فقط يشبه الكائن الحي ولكنه يتطابق معه عبر ثلاث ماهيات وهي:⁽²⁾

- ماهية المجتمع: حسب داروين و" هيغل" بصفة خاصة يتفق سبنسر على اعتبار المجتمع جزءاً من النظام الطبيعي للكون. وبالتالي فهو يرفض الفكرة التي تعتبره شيئاً خارجاً عن هذا النظام. فالمجتمع مزود بدورة دموية تتمثل في نظم التوزيع وطرق المواصلات مزود بجهاز هضمي وأخرجي يتمثل في نظم الاستهلاك، ومزود بجهاز عصبي يتمثل في الجهاز التنظيمي والإدارة الحكومية التي تتولى قيادة المجتمع، وكل هذه الأجهزة نمت تدريجياً بنمو المجتمعات بمعنى هذا التباين في البناء كان يتضاعف في استجابة لتطور حاجات المجتمع أي ليستطيع القيام بالوظائف الجديدة التي أصبح المجتمع في حاجة إليها ليستمر في الوجود والنمو.⁽³⁾

- ماهية علم الاجتماع عند سبنسر:

يرى "سبنسر" ان اعتبار المجتمع جزءاً من النظام الطبيعي للكون يستوجب، النظر إليه كفرع من منظومة التفسير الطبيعي التي تطبق على سائر مظاهر الكون وليس على المجتمع فقط، وعلى هذا الأساس فان علم الاجتماع

-(1)

-(2)

-(3)

هو محاولة لمعرفة نشأة المجتمع وتركيبه وعناصره وهيئاته ومراحل نموه وتطوره وما الى ذلك من المظاهر التي تخلفها العوامل الطبيعية والنفسية والحيوية بوصفها عوامل تعمل متضافرة في عملية تطورية موحدة. (1)

- ماهية التطور الاجتماعي: هكذا فان التطور الاجتماعي ليس الا عملية تطورية عضوية ليس بالمعنى البيولوجي النصوصي بل بالمعنى الاصطلاحي الذي يخلص سبنسر الى تسميته بالتطور فوق العضوي. (2)

نظرية سبنسر الاجتماعية:

تركز نظرية سبنسر الاجتماعية على موضوع التطور والارتقاء الاجتماعي، وهذا الموضوع مستعار من علم الاحياء، وسبق أن استعمله "دارون" في مؤلفه "أصل الأنواع" عندما تكلم عن التطور الفيزيولوجي للكائنات الحيوانية عبر العصور، اذ أشار الى الكائنات الحية بضمها الانسان تتحور وتتطور على مر العصور من شكل بسيط الى شكل معقد ومن وضعية متخلفة الى وضعية متقدمة وراقية. لكنه بالارتقاء الاجتماعي يعني سبنسر تقدم الحياة على الأرض خلال عملية واحدة تسمى بالارتقاء Evolution وهذه العملية يمكن تلخيصها بنقطتين أساسيتين:

- توجد في مظاهر التقدم المتعلقة بالحياة العضوية والحياة الاجتماعية عملية تنوع تنبعث منها مظاهر مختلفة وكثيرة تميز الحياة العضوية والحياة الاجتماعية.

- هناك اتجاه عام للتقدم بواسطته تنبعث مظاهر تركيبية أكثر تعقيدا من المظاهر التي كانت تميز الحياة العضوية والاجتماعية.

✓ تقسيم المجتمعات: يقسم سبنسر المجتمعات الى أربعة أنواع وهي:

1/ المجتمع البسيط: هو من أول المجتمعات الإنسانية ولهذا المجتمع بناء وظيفي يتكون من أجزاء متناسقة ومتكاملة. وقد يكون للمجتمع جهاز مركزي قادر على تحقيق أهدافه العامة.

والمجتمعات البسيطة يمكن تقسيمها الى أقسام مختلفة تبعا لنوعية أجهزتها المركزية والإدارية. فهناك مجتمعات بسيطة فيها رئيس مؤقت وهناك مجتمعات بسيطة تتوفر فيها رئاسة مستقرة. كما يمكن تقسيم المجتمعات البسيطة حسب استقرارها الجغرافي، فهناك المجتمعات البسيطة المستقرة كالمجتمعات الزراعية وهكذا. وهذه المجتمعات لا تعتمد اعتمادا كبيرا على نظام تقسيم العمل وتجهل القوانين المدونة، ويكون مستواها المعاشي واطنا ودرجة تطورها الحضاري محدودة.

ويحول المجتمع البسيط الى المجتمع المركب بعد زيادة عدد السكان واعتماد أساليب تقسيم العمل.

2/ المجتمع المركب هو المجتمع المتكون من جماعات مختلفة لكل جماعة منها قائد يخضع الى قائد عام.

والمجتمع المركب ينقسم الى نمطين:

2-1 المجتمع المركب تركيباً مضاعفاً: وهو المجتمع الذي تقوده الحكومة ويؤمن بدين معين له أهمية في تنظيم العلاقات وسلوك الأفراد وتحديد أخلاقية الجماعة ويكون نفوذ العادات والتقاليد في هذا المجتمع قوياً، وقد تتحول هذه العادات والتقاليد إلى قوانين شرعية معقد تعتمدها الحكومة في نشر العدل والاستقرار والطمأنينة في ربوع المجتمع. وهذه المجتمعات تكون متقدمة في مهن الزراعة والصناعة والتجارة ولها نظام اقتصادي جيد. كما تبرز في الفنون الجميلة والفلسفة والعلوم الأخرى. ونتيجة لهذه الفعاليات نمت وتطورت المدن الكبيرة فيها وتأسست طرق المواصلات التي تربط بينها، كما وضعت الحدود التي تفصل بين المدن وأقاليمها.

2-2 المجتمعات المركبة تركيباً ثلاثياً: فهي المجتمعات المعقدة والراقية والتي نشأت فيها حضارات عريقة مثل حضارة وادي الرافدين، وحضارة وادي النيل والحضارة الرومانية أو الإمبراطوريات حكومات مختلفة تخضع لحكومة مركزية واحدة. وتتميز المجتمعات المعقدة بارتفاع نمط المعيشة وارتفاع ونضوج النظم السياسية والاجتماعية فيها وتطور أساليبها الإنتاجية المعتمدة على مبدأ تقسيم العمل وتقدمها في المجالات العلمية والفلسفية والتكنولوجية وكبر وعظمة جيوشها العسكرية التي تضمن هيبتها وتعزز سلطانها في الاصقاع التي تسيطر عليها.

وقد أكد "سبنسر" في سياق حديثه عن نظرية التطور والارتقاء على حتمية تطور المجتمعات الإنسانية، حيث أشار إلى أن المجتمع البسيط عن طريق التقدم والارتقاء يتحول إلى مجتمع مركب تركيباً مضاعفاً والأخير يتحول إلى مجتمع مركب تركيباً ثلاثياً. إن التطور هذا هو تطور لا بد منه وإن الإنسان مهما بدل من قوة ونشاط لا يستطيع الوقوف بوجه هذا التحول الجارف الذي لا يمكن عكس تياره ولا يمكن منعه من تحقيق أهدافه التي تسير نحوها، كما لا يستطيع الإنسان مقدماً التخطيط للمجتمع ووضع الأهداف الغائبة له. ذلك أن التطور وارتقاء المجتمع هما حركة طبيعية وحتمية يعجز الإنسان عن معرفة ما تتوصل إليه من نتائج وما تحققه من أهداف تتماشى أو تتعارض مع طموحات وأمانى الأفراد لكن آراء سبنسر هذه التي تعبر عن التحول الاجتماعي التلقائي أو الحتمي تتعارض كل التعارض مع آراء علم الاجتماع المحدثين الذين يعتقدون بأهمية الهندسة والتخطيط الاجتماعي الذي يضع أهداف غائية وبرامغياتية لا يمكن إنجازها دون وضع السبل التي من خلالها ينمن الوصول إلى الأهداف. إذن تتناقض أفكار سبنسر التي تعبر عن حتمية التحول الاجتماعي وعدم إمكانية التخطيط المسبق للمجتمع مع أفكار علم الاجتماع الحديث التي تؤمن بضرورة تشخيص أهداف وغايات المجتمع ووضع السبل التي تكفل تحقيق الأهداف ونيل الطموحات.⁽¹⁾

لقد عالج "هربرت سبنسر" مشكلة العلاقة بين الفرد والمجتمع من خلال نزعة فردية متطرفة، وهي نزعة يصعب أن تتسق أو تتفق مع النزعة العضوية، حيث اعتبر أن الفرد هو المحور ويجب أن تكون له الحرية الكاملة في التصرف دون تدخل من الدولة أو الجماعة، لأن عمل الفرد يحقق مصلحته الخاصة وفي الوقت نفسه يخدم المجتمع ككل. هذه النظرة الفردية تثير إشكالا نظريا حين نقارنها بالمماثلة العضوية التي اعتمدها "سبنسر" لتفسير

بنية المجتمع؛ فقد شبه المجتمع بأنه يتطور وينمو مثل الكائنات الحية، لكنه أشار إلى فروق مهمة؛ فالمجتمع يتكون من أفراد متفرقين وليس من أعضاء متصلة ماديا، كما أن الوعي في المجتمع موزع بين الأفراد، بينما يتركز في جزء واحد من الكائن الحي. كذلك، فإن الكائن الحي يعمل لخدمة الكل، أما المجتمع - حسب سبنسر - فهو موجود لتحقيق الفائدة لأفراده. وعلى الرغم من أنه لم يحدد عاملا واحدا يقود التغير الاجتماعي، إلا أنه اعتبر أن هناك قوة تطورية عامة وغامضة هي التي تدفع المجتمعات نحو النمو والتعقد، دون أن تكون هذه القوة قابلة للفهم أو التحديد بدقة.⁽¹⁾

منهج سبنسر:

المنهج الذي استخدمه سبنسر فكان منهجا مقارنا في جانب منه، والباحث الذي يصطنع هذا المنهج يقارن بين المجتمعات أولا، وحينئذ يفسر الوحدات الفردية التي سلط عليها الضوء بالمقارنة في ضوء أهميتها بالنسبة لتطور الكل - لكن سبنسر قد استخدم - في الواقع المنهج الاستنباطي. فقد بدأ بنظرية اكتشفت بواسطة الاستنباط ثم اشتق من هذه النظرية ضرورة مراحل معينة، وعندئذ كسا هذه المراحل المجردة لحما ودما عن طريق الاستشهاد بأمثلة من هنا ومن هناك تناسب نسقه أو مذهبه، وكان من المفترض سلفا أن يتمكن -بعد أن حدد هذه المجتمعات من التحقق مما إذا كانت هذه المجتمعات التي ذكرها تتم بتمائل في السياسة والدين والقانون، إلا أنه من المؤكد أنه لم يقم بأي تحقيق ولم يقدم أية نتائج وضعية.⁽²⁾

أهم الانتقادات الموجهة لسبنسر:

تعرض " سبنسر " لعدة انتقادات، أبرزها التناقض في فكرته التي تربط بين التطور والتقدم، إذ اعتبر أن كل تطور يؤدي بالضرورة إلى التقدم. غير أن هذا الربط لا يتفق مع الواقع، لأن هناك حالات من "التطور السلبي" لا تؤدي إلى أي تقدم، مثل تطور الفيروسات القاتلة التي قد تهدد البشرية، أو تفوق بعض الكائنات الضعيفة عدديا على كائنات أقوى منها.

كما واجهت نظرياته في بداية القرن العشرين رفضا واسعا من علماء الاجتماع الألمان، خصوصا من الجيل الأول المناهض للاتجاه الوضعي. وقد عبر ماكس فيبر عن هذا الرفض، منتقدا الأسس الوضعية والأيديولوجية التي قامت عليها أفكار سبنسر، خصوصا مواقفهم من عدم تدخل الدولة، ومقولاته عن "البقاء للأصلح" و"الانتخاب الطبيعي"، والتي اعتبرت من قبل كثير من الباحثين أفكارا غير إنسانية وعدوانية تجاه الإنسان والمجتمع. ومن أبرز المآخذ عليه أيضا اعتماده المفرط على الحدس الشخصي، ورفضه الاطلاع على أفكار المفكرين الآخرين. فقد كان يفتخر بأنه مفكر لا يقرأ، ويؤمن بأن القراءة قد تضعف قدرته على التفكير المستقل. هذا الموقف جعله

-(1)

-(2)

منغلقا على ذاته، وأفقده القدرة على تطوير نظرياته أو تصحيحها. وقد لاحظ داروين هذا السلوك، وتمنى لو أن سبنسر درب نفسه على قراءة أعمال غيره، لأنه كان سيصبح أكثر نضجا وعمقا. وقد أدى هذا النهج الفردي إلى بروز أفكار غير دقيقة، بل وعنصرية أحيانا، مما دفع علماء الاجتماع في القرن العشرين إلى تجاوز نظرياته والاعتماد على مناهج علمية دقيقة وبحث تجريبي أكثر صرامة.⁽¹⁾

فلفريدو باريتو نظرية الرواسب والمشتقات ودورة الصفوة

لمحة تاريخية عن حياته:

ولد فلفريدو باريتو في باريس عام 1848 من أب إيطالي وأم فرنسية، ونشأ في إيطاليا بعد فرار والده بسبب مواقفه الجمهورية. تلقى تعليمه في معهد الهندسة، وأبرز شغفا بالرياضيات، مما أثر في بنائه النظري فيما بعد. في عام 1870م، أنجز رسالته حول "توازن الأجسام الصلبة"، وظهر فيها نزعته التحليلية لمفهوم التوازن في الاقتصاد وعلم الاجتماع. كان رجل أعمال ناجحا، وطور نظريات في إدارة المشاريع، ورغم انتمائه للطبقة الأرستقراطية، فقد نبذها ودعا إلى الديمقراطية وحرية التجارة ونزع السلاح، واحتج على استغلال الطبقات الفقيرة. خلال مسيرته، أقام علاقات مع رجال الاقتصاد والسياسة، وانضم إلى جمعية "آدم سميث"، حيث تأثر بأفكار الليبراليين وبوجه خاص بصديقه "بنتاليوني"، الذي وجه اهتمامه نحو نموذج التوازن الرياضي في الاقتصاد. في سنينه الأخيرة، نال شهرة واسعة بعد صعود "موسوليني" للسلطة، الذي اعتبر نفسه تلميذا لباريتو، ورأى في نظرية "الصفوة" التي طورها باريتو أساسا للأيديولوجيا الفاشية. وقد توفي باريتو عام 1923م بعد حياة حافلة بالإنجازات العلمية والاجتماعية والسياسية.⁽²⁾

لم يكتب باريتو بصفة خاصة في علم الاجتماع سوى كتاب "المقدمة في علم الاجتماع"، و ترجم سنة 1935 بعنوان "العقل والمجتمع".⁽³⁾

علم الاجتماع ومناهجه عند "باريتو"

يعرف باريتو العالم التجريبي بأنه يتكون من ظواهر وعلاقات يمكن إدراكها بالحواس، ويتيسر قياسها وتصنيفها. ويشدد على أن المنهج العلمي في علم الاجتماع يجب أن يتبع قواعد الاستقراء التي وضعها "جون ستيوارت ميل"،

:- (1)

-(2)

-(3)

والتي تعتمد على الملاحظة والتجربة والتفسير المنطقي. وعلم الاجتماع بالنسبة له لا يجب أن يسعى إلى البحث عن السببية أو إلى دراسة ظواهر كيفية.⁽¹⁾

وعلى الرغم من تركيزه على العالم القابل للملاحظة، فقد درس باريتو بتعمق في كتابه "المقدمة" مجموعة من الظواهر التي لا تنتمي إلى العالم التجريبي، مثل: الأفكار المجردات، الآراء، المعتقدات، العواطف. وقد سعى إلى تحويل هذه الظواهر إلى وقائع يمكن ملاحظتها ودراستها، لتندرج ضمن العلم الاجتماعي.

- يحذر باريتو من الاعتماد على تصنيف المصطلحات اللغوية في دراسة المجتمع، ويشير إلى أن العلوم الطبيعية لم تقم على تفسير اللغة العادية، بل على تحليل الوقائع وتصنيفها، ويجب على علم الاجتماع أن يفعل المثل. ويؤكد باريتو أن الأسلوب العلمي يجب أن يقوم على تفسير المجهول بالمعروف، ويعني ذلك أن تفسير الماضي من خلال الحاضر أفضل من تفسير الحاضر على ضوء الماضي، وهو مبدأ تغفله كثير من البحوث الاجتماعية. في نهاية منهجه، يشدد باريتو على ضرورة تعريف المفاهيم الأساسية في العلم تعريفا دقيقا، وصياغة النظريات في مصطلحات محكمة.⁽²⁾

أهم مسلماته:

تنطلق أفكار "باريتو" من مسلمتين رئيسيتين وهي كالتالي:

المسلمة الأولى: هي أن علم الاجتماع هو العلم الذي يسعى إلى تحليل شروط توازن الأنساق الاجتماعية تحليلا علمياً.

ركز باريتو على هذه النقطة بالذات باعتبارها نقطة الانطلاق لكافة أعماله ولذلك نستطيع القول بأنه تضمن افتراضاً بنائياً وظيفياً حول التفاعل والتساند بين مكونات النسق الاجتماعي.

لقد نظر "باريتو" إلى المجتمع على أنه نسق في حالة توازن، يتكون من مجموعة من العناصر المتوازنة التي تكون نسقه الكلي:

- العناصر الفيزيائية (كالتربة، المناخ، النبات، الحيوان، إلخ)، والعناصر الخارجية (المجتمعات الأخرى التي تتفاعل مع المجتمع)،

- ثم العناصر الداخلية (التي تتضمن السلالة والعواطف والمشاعر والايديولوجيات)، وهي الأهم في تفسير الواقع الاجتماعي وتغييره.

- وقد كان باريتو ينظر إلى هذه العناصر أنها تتفاعل في منظومة واحدة، ولكنه أولى اهتماما خاصا للعوامل الداخلية الأخيرة، بتأكيد على أن هذه العناصر تشكل نسقا سلوكيا يمكن دراسته من خلال الأفعال التي يأتها الأفراد.

-(1)

-(2)

أكد بارييتو من خلال دراسته لهذه العوامل الداخلية أن المصالح والرغبات والرواسب والمشتقات تتجمع في نمطين للفعل الاجتماعي: أفعال منطقية وأخرى غير منطقية.⁽¹⁾

المسلمة الثانية: هي العقل والفعل في المجتمع أي ضرورة التفرقة بين العقل المنطقي (الفعل المنطقي) وغير المنطقي (الفعل اللاعقلاني).

لقد كان التصور الشائع لدى معظم العلماء أن الإنسان كائن عقلائي، ولكن بارييتو خالف هذا التوجه بالقول أن معظم الأفعال الإنسانية لا عقلانية.

وقد صنف الأفعال إلى أفعال عقلانية منطقية وأخرى وهي الأغلب أفعال لا عقلانية.⁽²⁾

✓ **والفعل العقلاني (المنطقي) (logical-action)** هو نموذج مثالي غير موجود في الواقع، يتحكم فيه العلم والمنطق، ولا يتأثر بالعواطف والمشاعر أو المصالح. كما يمكن أيضا القول هو الفعل الذي يرتبط منطقياً بغاية معينة ليس فقط من وجهة نظر الفاعل وإنما من وجهة نظر الآخرين أي ترتبط فيه الوسيلة بالغاية وبهذا فهو سلوك تتضمن العقلانية فيه الجانبين الذاتي، والموضوعي والأفعال العقلانية غالباً ترتبط بالمعرفة العلمية الناتجة عن المنهج المنطقي التجريبي.

ففي كتاب بارييتو "المقدمة" لا نجد إلا أمثلة قليلة جدا لهذه الأفعال، مثل صياغة النظرية العلمية، والسلوك الاقتصادي – وان كان لا يعتبر منطقيا في كافة الظروف-سلوك المحامين. السلوك القضائي يعد سلوكا غير منطقي والسبب في ذلك أن أحكام القضاء تكشف بدرجة ملحوظة عن عواطف رجال القضاء.

✓ **أما بالنسبة للفعل اللاعقلاني (غير المنطقي) (non-logical-action)** فهو يعد اشكالية بحثية فكيف يمكن دراسته بطريقة منطقية. كما يمكن أيضا القول أيضا هو النمط السائد في الواقع، تتحكم فيه العواطف والمشاعر والمصالح والأيديولوجيات، يبرر بأفكار ومشتقات متغيرة

• ولكي يوضح بارييتو الأسس الذي يستند إليها الفعل غير المنطقي، استخدم بارييتو مفاهيم الرواسب (Rsiduese) والمشتقات (Derivations):

نظرية الرواسب والمشتقات

نجد أن نظرية الرواسب والمشتقات عند "بارييتو" تقسم إلى عدة فئات، وقبل أن نتحدث عن هذه الفئات لابد أن نعرف أولا مفهوم الرواسب:

- **تعريف الرواسب:** هي تعبيرات عن العواطف والمشاعر وتمثل ميولا نفسية ثابتة ترتبط بالعواطف؛ والغرائز، وتتوسط العلاقة بين العواطف والفعل، وتعد الرواسب من حيث توزعها بين أفراد المجتمع من العوامل التي تعزز

-(1)

-(2)

حالة التكامل والتوازن في النسق الاجتماعي فكل إنسان يولد بقدرات وميول تتفق مع متطلبات أدوار في البناء الاجتماعي ويترتب على توزيع الرواسب بين أفراد المجتمع تغطية الأدوار المختلفة بشكل تكاملي.⁽¹⁾

ومن هنا نجد أن باريتو حدد تصنيف الرواسب إلى عدة فئات وهي:⁽²⁾

1-رواسب الربط والتوليف: وتشير إلى الميل والقدرة على إقامة علاقات منطقية بين الأشياء والأفكار ويتضمن معناها ملكية الذكاء والقدرة على الإبداع وهذا يرتبط وجودها بتشكيل الحضارات.

2-رواسب المحافظة على التجمعات والارتباطات: وتعبر عن الميل إلى المحافظة على ما تم تشكيلة من بناءات ونظم وتجمعات، وهذا يرتبط موقف من يملكونها بالمحافظة على الوضع القائم وعلى حالات الاستقرار والتوازن في النسق الاجتماعي.

3-رواسب التعبير عن العواطف بواسطة أفعال خارجية: توجد هذه الرواسب عند عامة البشر وتتمثل الوظيفة الأساسية لهذا الراسب في ربط الإنسان الفرد من داخله بالوجود الاجتماعي الخارجي. من خلال الشعائر والطقوس وتعد هذه الحالة من عوامل التماثل الثقافي الذي يشكل قاعدة مشتركة تعزز تماسك الجماعة وحالة التوازن في النسق.

4-رواسب النزعة للاجتماع: وترتبط هذه الميول والمشاعر بتشكيل الجماعات وتعد من أسس انتماء الفرد للجماعة فهي تعبر عن ميل الفرد إلى تمثل أنماط الفعل والفكر والشعور والمظهر لدى الجماعة وهذا تعزز استقرار النظام.

5-رواسب التكامل الذاتي والشخصي: وترتبط بالميل إلى المحافظة على الذات وكل ما يرتبط بها من مكانة وسمعة واعتبار وفي الوقت نفسه مقاومة كل ما يمكن ان يهدد الهوية الذاتية.

6-رواسب الجنس: ويهم علم الاجتماع منها ما يرتبط بالسلوك الجنسي من معايير وقيم وأخلاقيات أي القواعد الثقافية والخلقية التي ترتبط بالنشاطات الجنسية.

-تعريف المشتقات: فهي الجوانب المتغيرة، التي تشير إلى مجموعة من الأساليب التي يبرر بها البشر أفعالهم ويشرحونها، فهذه التبريرات والأفكار التي تشبه الأيديولوجيات المستخدمة لتبرير أفعال الناس، تتغير بتغير الظروف⁽³⁾.

وبعد أن نظر باريتو في البداية للمشتقات من منظور يعكس الطابع الذاتي لهذه التفسيرات، لخص أربع فئات أساسية من المشتقات على النحو التالي:

1-مشتقات التوكيد والتي تؤكد الواقع والعواطف

شعارات مثل "الدين الاسلامي هو الحل لكل مشكلاتنا" تؤكد مواقف عاطفية وتبرر سلوكا دينيا معيناً.

2-مشتقات السلطة سواء تعلقت بالأفراد أو الجماعات أو العادات أو القوة الإلهية.

-(1)

-(2)

-(3)

3-المشتقات المتصلة بالمبادئ والعواطف العامة -والتي تعمل كذلك على المحافظة عليها-

4 المشتقات الخاصة بالبراهين اللفظية مثل الاستعارات الأدبية والمماثلات.

ويوضح لنا "تيماشيف" بقوله: "ان المشتقات وظيفتها إضفاء المقبولية أو الرشد الاجتماعي Societal rationalizations، فإذا كانت الرواسب وراء السلوك الإنساني غير المنطقي في معظمه، فإن الحاجة الإنسانية إلى المنطق إلى أي إضفاء المعقولية على أفعالهم تدفعهم إلى هذه التبريرات أي إلى المشتقات.drivations" (1) وهكذا تعمل الرواسب في الواقع الاجتماعي مستندة إلى مشتقاتها أو تبريرها أو ترشيدها المعياري. واعتبر باريتو أن هذه الرواسب تتوزع في المجتمع خلال البناء الطبقي، وتعمل من أجل التوازن والتساند. وبما أن توزيع هذه الرواسب يتغير، وبصفة خاصة الفئتين-غريزة التآلف. - الجماعات الدائمة. على أي حال يتغير هذا التوازن في شكل من الدوران بين الصفوة الحاكمة، والصفوة غير الحاكمة.

نظرية دورة الصفوة:

ان أكثر الرواسب ارتباطا بنظرية باريتو في الصفوة(النخبة)، هما رواسب التكامل، ورواسب استمرار الجماعات، حيث ترتبط رواسب التكامل: بالميل نحو الاعتماد على المهارات والقدرات (الذكاء، الخبرة، القدرة على التكامل والتواصل مع الغير، إلخ) نحو تحقيق الغايات؛ أما رواسب استمرار الجماعات: فترتبط بالميل نحو التصلب واستخدام القوة والرغبة في الدخول في "الصراع" المفتوح.

• ويرى باريتو أن وجود هذين النوعين من الرواسب يخلق في بناء المجتمع الداخلي فيما يسميه "التوازن الاجتماعي"، فهذه الرواسب تؤدي إلى خلق التوازن بين من يملكون رواسب التكامل، ومن يملكون رواسب الاستمرار، والفوز هنا مرهون باستخدام ما لدى الجماعة من قدرات رواسبية، وفي سياق تحليله هذا.

• قسم باريتو المجتمع إلى فئتين من الناس:

- اللاصفوة (Non-Elite): التي تمثل الشريحة الدنيا (low-stratum)

- الصفوة (Elite): التي يعمل بعض أعضائها في السياسة وأمور الحكم فيشكلون صفوة حاكمة وبعضها يعمل في مجالات النشاط غير السياسي، أي أنهم من الصفوة يؤثرون ولا يحكمون.

*أما عن دورة (النخبة)الصفوة (circulation-of-Elites): ففي هذه الدورة يرى باريتو ان الصفوة الحاكمة التي تنقسم إلى فئة أقدر على استخدام وسائل الخداع والذكاء (سماها جماعة الثعالب)؛ وجماعة أخرى تستخدم العنف والقوة لأنها تمثل رواسب الاستمرار(وسماها الاسود) لا تترفع على السلطة والحكم للأبد، ولكن يتشكل

صراع بين الفئتين، فيتشكل ما يسمى بتداول النخب بين النخبة الحاكمة التي تشمل الاشخاص المعنيين بالحكم يلعبون أدوارا ولهم مكانة سياسية مرموقة في المجتمع؛ والنخب غير الحاكمة التي تشمل الاشخاص الذي ليس لهم علاقة بالحكم ولا يشغلون مناصب في الدولة ولكنهم يحتلون مكانا مرموقا في المجتمع ويؤثرون بطرق مختلفة.⁽¹⁾

النظرية الماركسية في علم الاجتماع -الكلاسيكية-

مقدمة:

عندما نتحدث عن فكر كارل ماركس في القرن الحادي والعشرين، قد يتبادر إلى أذهان بعضنا صور نمطية عن نظريات قديمة انتهت صلاحيتها مع سقوط جدار برلين، أو قد يربطه البعض بأنظمة سياسية مارست القمع باسم الاشتراكية، لكن الحقيقة أن "شبح ماركس" - كما وصفه هو نفسه في بداية المانيفستو الشيوعي⁽²⁾ - لم يغادر المسرح العالمي أبدا، بل على العكس، إنه يحضر بقوة في كل أزمة اقتصادية عالمية، وفي كل مظاهرة للعمال يطالبون بحقوقهم، وفي كل نقاش حول تفاقم الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وفي كل مرة نجد فيها أنفسنا نسأل: لماذا يزداد الغنى غنى والفقير فقرا رغم كل التقدم التكنولوجي؟ لماذا يعمل الموظف أربعين ساعة أسبوعيا ولا يستطيع تملك منزل، بينما تزداد أرباح المستثمرين بمجرد نومهم؟ لماذا نشترى أشياء لا نحتاجها لإثبات وجودنا؟ كل هذه الأسئلة هي في صميم الفكر الماركسي، وهو ليس مجرد نظرية سياسية أو اقتصادية، بل هو أحد أهم رواد علم الاجتماع كعلم نقدي يحاول فهم البنية العميقة للمجتمع، لا وصف المظاهر السطحية فقط. لقد أسس ماركس، بالاشتراك مع "فريدريك إنجلز"، لما يمكن تسميته بـ "علم الاجتماع النقدي" الذي يختلف تماما عن النظريات الوظيفية التي ترى المجتمع ككائن حي متناغم، إذ يرى ماركس المجتمع على أنه ساحة صراع دائم بين جماعات متعارضة المصالح، وأن هذا الصراع هو الذي يحرك التاريخ ويصنع التغيير، وليس الإجماع أو التناغم. ومن هذا المنطلق، فإن دراسة النظرية الماركسية ضرورة منهجية لفهمنا لعالمنا اليوم، سواء في تحليلنا للأزمات

الاقتصادية المتكررة، أو في فهمنا لأسباب الثورات والاحتجاجات الاجتماعية، أو حتى في قراءتنا للثقافة السائدة وكيف تبرر الأنماط الاقتصادية القائمة.

الجدور التاريخية للفلسفة الماركسية:

ولد كارل ماركس في مدينة ترير الألمانية عام 1818 في أسرة يهودية تحولت إلى البروتستانتية لتفادي التمييز، وهذا التحول المبكر جعله يعيش تجربة ازدواجية والتحول الاجتماعي منذ طفولته، وأدرك كيف يمكن للعوامل الاقتصادية والاجتماعية أن تفرض على الأفراد خيارات غير أخلاقية للبقاء.

درس الفلسفة في جامعة برلين، وفي عام 1843، التقى "فريدريك إنجلز" Friedrich Engels "الصناعي الألماني الذي كان يدير مصنعاً في إنجلترا، وكانت هذه المصادفة هي اللحظة الفارقة في تاريخ الفكر الإنساني، فقد كتب الاثنان معاً "المبدأ الألماني" و"المانفيسستو الشيوعي" ثم عمل ماركس لسنوات طويلة على موسوعته العملاقة "رأس المال" التي لم يكملها، لكنها شكلت أساس الفكر الماركسي الاقتصادي والاجتماعي. وما يهمنا كطلاب علم اجتماع هو أن ماركس لم يكن أبداً مجرد فيلسوف دمية يجلس في برج عاجي، بل كان منخرطاً تماماً في النضالات العمالية لعصره، محلاً للأزمات الاقتصادية، متبعاً لحياة العمال في المصانع الإنجليزية، وشارك حتى في الثورة الفرنسية عام 1848 ثم نفي إلى لندن حيث عاش معظم حياته في فقر مدقع، مما جعله يعيش تجربة البروليتاريا التي نظر لها نظرياً. فمن خلال ما سبق، نفهم لماذا كان هدفه ليس فقط تفسير العالم، بل تغييره، فقد كان يؤمن بأن الفيلسوف الحقيقي لا يكتفي بالتأمل، بل يجب أن يكون منخرطاً في صنع التاريخ. وهذا المزيج بين التحليل العميق والالتزام العملي هو ما يجعل الماركسية مختلفة عن كل النظريات الأخرى في علم الاجتماع، فهي لا تقدم نفسها كمجرد معرفة محايدة، بل كأداة للتحرر.

كارل ماركس وهيغل:

تأثر كارل ماركس بفلسفة هيغل، غير أنه سرعان ما انتقدها واعتبر أنه "هيغل مقلوب"، فبينما رأى هيغل أن العقل هو الذي يحدد المادة وأن التاريخ هو مسار العقل وتجلياته في الدين والفن والفلسفة، اعتبر ماركس أن المادة والواقع الاجتماعي هما الأصل وأن الفكر تابع لهما، فسميت فلسفة "هيغل" بالمثالية التاريخية في حين سميت فلسفة ماركس بالمادية التاريخية.

وقد أكد "هيغل" في كتبه، مثل "فينومولوجيا العقل"، أن جوهر الإنسان هو التفكير وأن التاريخ يجسد تطور العقل، واستخدم مفهوم الجدلية ليبين أن صراع الأفكار يؤدي إلى التطور.

أما ماركس فقد بنى نظريته على الجدلية المادية، معتبراً أن التاريخ هو تاريخ صراع الطبقات، وميز بين البنية التحتية -الواقع المادي والاقتصاد- والبنية الفوقية -الدين والقانون والفن والفكر-، مؤكداً أن الواقع الاجتماعي هو الذي يحدد الوعي الاجتماعي. ومن هنا جاءت أهمية نظريته في فهم حركة التاريخ، إذ كلما تغيرت البنية التحتية تغيرت معها البنية الفوقية، وهذا ما يفسر انتقال المجتمعات من نظام إلى آخر، مثل انتقال المجتمع الإقطاعي إلى

الرأسمالي، ومن ثم إلى الاشتراكي، مما يبين أن التغير الاجتماعي والاقتصادي هو المحرك الأساسي للتاريخ وليس الأفكار المجردة.

المادية التاريخية: الأساس الفلسفي للفهم الماركسي⁽¹⁾

المادية التاريخية هي الحجر الأساس في بناء ماركس الفكري، وهي فلسفة التاريخ التي تقف على عكس الفلسفات السابقة تماماً. فبدلاً من أن ترى التاريخ كسيرورة فكرية أو روحية، يراه ماركس كسيرورة مادية اقتصادية محضة، وتقول الفكرة الأساسية ببساطة: "إن الوعي الاجتماعي يتحدد بالوجود الاجتماعي، وليس العكس". وهذا يعني أن أفكارنا وقيمنا ومعتقداتنا وثقافتنا ليست نتاجاً للإلهام الإلهي أو للعقل المستقل، بل هي في الأساس انعكاس لواقعنا الاقتصادي والمادي. فالإنسان لا يعيش بالأفكار وحدها، بل يحتاج أولاً إلى الطعام والماء والسكن، ومن ثم يتشكل وعيه وفقاً لكيفية حصوله على هذه الاحتياجات الأساسية.

وهذا يقودنا إلى مفهوم البنية التحتية والبنية الفوقية، وهو التمييز الأشهر في الفكر الماركسي. يقدم كارل ماركس نموذجاً لفهم المجتمع يقوم على التمييز بين "البنية التحتية" الاقتصادية و"البنية الفوقية" الأيديولوجية والثقافية. يرى ماركس أن طبيعة البنية التحتية هي التي تحدد شكل البنية الفوقية.

- البنية التحتية: تشمل قوى الإنتاج (الأدوات، المصانع، المواد الخام) وعلاقات الإنتاج (العلاقات بين الناس في عملية الإنتاج، مثل علاقة العامل بصاحب العمل). إنها الأساس المادي والاقتصادي للمجتمع.
- البنية الفوقية: تشمل كل ما هو غير اقتصادي: الدولة، القانون، السياسة، الدين، الفلسفة، الفن، والأخلاق.

هذه المؤسسات والأفكار تنشأ على أساس البنية التحتية وتعمل على خدمتها وتبريرها.

ومما سبق لا يعني أن ماركس يرى البشر كآلات بلا إرادة، بل على العكس، يرى أن الإرادة البشرية محدودة بشروطها المادية، وأن التحرر الحقيقي لا يكون بالتفكير الإيجابي فقط، بل بتغيير الشروط المادية التي تنتج الوعي السلبي، وهو ما يميز المادية التاريخية عن كل الماديات السابقة، فهي مادية دياكتيكية ترى الصراع والحركة في صميم الواقع، وليست مادية ميكانيكية جامدة.

مفهوم الطبقة والصراع الطبقي عند ماركس:

عندما نتحدث عن الطبقة عند ماركس، يجب أن نتخلص تماماً من التصنيفات الإحصائية الحديثة التي تعتمد على الدخل أو المهنة أو التعليم، فهذه كلها مؤشرات سطحية لا تصل إلى جوهر المفهوم الماركسي. بمعنى آخر الطبقة الاجتماعية لا تحدد بالدخل أو المكانة، بل بعلاقة الفرد بـ "وسائل الإنتاج" (الأرض، المصانع، رأس المال). في المجتمع الرأسمالي، يوجد بشكل أساسي طبقتان رئيسيتان في صراع مستمر.

- البرجوازية: (The Bourgeoisie) هي الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج. هدفها هو تحقيق أقصى قدر من الربح.
- البروليتاريا: (The Proletariat) هي الطبقة العاملة التي لا تملك وسائل الإنتاج، فتضطر لبيع قوة عملها للبرجوازية مقابل أجر للبقاء على قيد الحياة.

يرى ماركس أن العلاقة بين هاتين الطبقتين هي علاقة صراع بطبيعتها "الصراع الطبقي". مصالح الطبقتين متناقضة: البرجوازية تسعى لزيادة أرباحها-عبر خفض الأجور مثلاً-، بينما تسعى البروليتاريا لتحسين ظروفها-عبر رفع الأجور-. هذا الصراع هو المحرك الأساسي للتغيير التاريخي في نظريته.

أما الإشكالية التي طرحها العديد من النقاد، فهي وجود ما يسمى بالطبقة الوسطى، وهنا يجب أن نفهم أن ماركس نفسه كان يدرك هذا التعقيد، فقد تحدث عن البرجوازية الصغيرة (البائعين والحرفيين الصغار) والبروليتاريا المثقفة، لكنه رأى أن الميل العام للرأسمالية هو الثنائية التامة، فالتركيز المستمر لرأس المال في أيدي القلة والقضاء على المنافسة الصغيرة سوف يؤدي في النهاية إلى انضمام الغالبية إلى البروليتاريا، وهذا ما نراه اليوم في عولمة الأسواق وهيمنة الشركات الكبرى على حساب المشاريع الصغيرة. ومن المهم أن نلاحظ أن مفهوم الطبقة عند ماركس ليس مجرد تصنيف، بل هو مفهوم ديناميكي يحمل في طياته إمكانية الثورة، فالبروليتاريا ليست طبقة عابرة، بل هي الطبقة التي تاريخياً ستقضي على كل الطبقات بما فيها نفسها، لأنها لا تطمح إلى الاستيلاء على رأس المال لكي تصبح بورجوازية، بل لإلغاء علاقات الاستغلال نفسها، ومن ثم إلغاء الطبقات جميعاً، وهو ما يميز الرؤية الماركسية عن كل النظريات الطبقيّة الأخرى.

الاغتراب:

يرى ماركس أن ما يميز الإنسان هو قدرته على الإنتاج الواعي والحر والإبداعي. في ظل الرأسمالية، يتم اختزال هذه القدرة إلى مجرد عمل حيواني من أجل البقاء، فيغترب الإنسان عن جوهره الحقيقي.
مثال: فنان موهوب أو كاتب مبدع يضطر للعمل في وظيفة إدخال بيانات رتيبة لكسب لقمة العيش. هو بذلك يكبت جوهره الإبداعي ويشعر بالغربة عن ذاته الحقيقية.

مفهوم الاغتراب عند ماركس

الاغتراب هو شعور العامل بالانفصال والعزلة والغربة عن عمله، وعن نفسه، وعن الآخرين نتيجة لوقوعه في نظام الإنتاج الرأسمالي. العمل، الذي يفترض أن يكون تعبيراً عن الذات الإنسانية، يتحول إلى مجرد سلعة تُباع من أجل البقاء. ويمكن فهم الاغتراب في أربعة مستويات:

1- الاغتراب عن منتج العمل

العامل لا يملك ما ينتجه. المُنتَج يصبح شيئاً غريباً عنه، قوة خارجية تواجهه، ويتحكم فيه الرأسمالي. كلما زاد إنتاج العامل، زادت قوة العالم الخارجي الذي لا يملكه.

2- الاغتراب عن عملية العمل

العمل نفسه لا يعود نشاطاً إبداعياً وحرّاً، بل يصبح قسراً خارجياً. هو ليس لتحقيق الذات، بل مجرد وسيلة لكسب المال. يشعر العامل بالتعاسة في عمله ولا يجد فيه أي رضا.

3-الاغتراب عن الطبيعة الإنسانية (جوهر النوع)

يرى ماركس أن ما يميز الإنسان هو قدرته على الإنتاج الواعي والحر والإبداعي. في ظل الرأسمالية، يتم اختزال هذه القدرة إلى مجرد عمل حيواني من أجل البقاء، فيغترب الإنسان عن جوهره الحقيقي. مثال:فنان موهوب أو كاتب مبدع يضطر للعمل في وظيفة إدخال بيانات رتيبة لكسب لقمة العيش. هو بذلك يكبت جوهره الإبداعي ويشعر بالغربة عن ذاته الحقيقية.

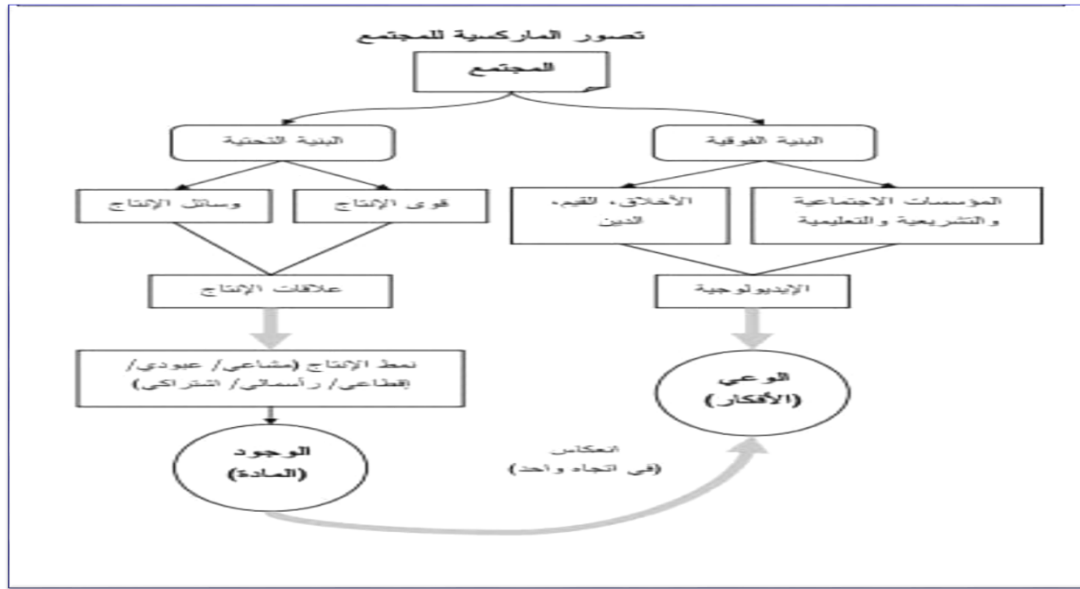
4-الاغتراب عن الآخرين

العلاقة بين الناس تتحول إلى علاقات قائمة على المصلحة والتبادل السلعي. يخلق النظام الرأسمالي منافسة بين العمال بدلاً من التعاون، ويجعل العلاقة بين العامل والرأسمالي علاقة استغلال. ومن هنا، فإن مفهوم الاغتراب ليس مجرد مصطلح فلسفي معقد، بل هو أداة تحليلية قوية لفهم لماذا نشعر بالكآبة رغم امتلاكنا لأشياء كثيرة، ولماذا نعاني من أزمت معنى رغم تقدمنا المادي، وهو ما يجعل الماركسية تتقاطع مع علم النفس الحديث في فهم الشقاء الإنساني في العصر الحديث.

الأيديولوجيا

إذا كان الاغتراب هو حالة انفصال الإنسان عن واقعه، فإن الأيديولوجيا هي الأداة التي تجعل هذا الواقع المؤلم يبدو طبيعياً ومقبولاً بل محبوباً، وهو أحد أذكى مفاهيم ماركس وأكثرها إثارة للجدل. يقول ماركس إن "الأفكار السائدة في كل عصر هي أفكار الطبقة الحاكمة"، وهذا لا يعني أن هناك مؤامرة إعلامية مباشرة، بل أن الأيديولوجيا تنتج بنيوياً من البنية التحتية، فأفكار الطبقة الحاكمة هي التي تنتشر لأنها تمتلك وسائل الإنتاج الثقافي: المدارس والجامعات والصحف والقنوات الفضائية ودور النشر. فمثلاً، عندما تكون البنية التحتية رأسمالية، فإن الأيديولوجيا السائدة ستكون فردية تؤمن بـ"المبادرة الشخصية" و"النجاح الفردي" و"المنافسة الحرة"، وستقدس الملكية الخاصة وتجعلها تبدو كحق طبيعي وليس كترتيب اجتماعي تاريخي. كما أنها ستقدم الفقر كنتيجة للكسل الشخصي وليس كنتيجة لبنية اقتصادية، والثروة كنتيجة للذكاء والاجتهاد وليس للاستغلال، وهذا ما يُسمى بـ"الوعي الزائف" أو "الخطاب الأيديولوجي" الذي يجعل الناس يرون مصالح الطبقة الحاكمة كما لو كانت مصالحهم هم. فالعامل الذي يصوت لخفض الضرائب على الأغنياء لأنه يحلم بأن يصبح غنياً يوماً ما هو ضحية أيديولوجيا، والموظف الذي يدافع عن "حرية السوق" ضد الحماية الاجتماعية لأنه يعتقد أنه قد يصبح رجل أعمال في المستقبل هو أيضاً ضحية أيديولوجيا.

والمثير أن ماركس لم ير الأيديولوجيا مجرد خداع وعي، بل اعتبرها ضرورة لبقاء النظام، لأن النظام القائم على الاستغلال لا يمكن أن يستمر بالقوة والقمع فقط، بل يحتاج إلى موافقة طوعية من المستغلين، وهذا ما يوفره الوعي الزائف. ومن هنا، فإن مهمة علم الاجتماع الماركسي هي "فضح الأيديولوجيا" أو "نقد الأيديولوجيا"، أي كشف الزيف المبني فيها، وإظهار كيف تخفي البنية الطبقية والمصالح الاقتصادية وراء المفاهيم الجميلة. فمثلاً، مفهوم "المواطنة المتساوية" في القانون يخفي عدم المساواة الاقتصادية التي تجعل هذه المواطنة شكلية، ومفهوم "السلام الاجتماعي" يخفي أن الصراع الطبقي هو القانون الحقيقي للتاريخ.



نظرية الفعل الاجتماعي عند ماكس فيبر

1- نبذة عن حياة ماكس فيبر Max Weber

ولد ماكس فيبر (1864 – 1920) في أسرة ميسورة، ودرس معظم حياته القانون والاقتصاد محققاً فيهما تفوقاً ملحوظاً. كان والده سياسياً نشطاً، وعضواً في البرلمان الألماني (الريشتاغ) منتصباً للحزب القومي الليبرالي. عين فيبر أستاذاً للاقتصاد سنة 1893 في جامعة فرايبورج، ثم انتقل إلى وظيفة مماثلة في هايدلبرج ولكنه أصيب سنة 1900 بانهيار عصبي حاد أوقف نشاطه الأكاديمي حتى سنة 1918 حيث عاد للتدريس في فيينا ثم ميونخ. توفي فيبر سنة 1920 في وقت بلغت فيه قدراته أقصى درجات نضجها.

لم يكن فيبر خاملاً أثناء فترة توقفه عن التدريس، إذ مكنته موارده المالية الخاصة من السفر عدة مرات عديدة خارج ألمانيا، وزار الولايات المتحدة سنة 1904 مهتماً ببحوثها.

نشر عدداً من الدراسات والمقالات في مجلة أرشيف العلوم الاجتماعية والسياسية وفي صحف مختلفة.

انخرط فيبر بنشاط في مجال السياسة. كانت آراؤه ليبرالية الطابع معارضا للخدمة العسكرية الإجبارية السائدة

في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الأولى، ودافع عن السلام بالمفاوضات.

بعد انتهاء الحرب، أصبح فيبر عضواً في اللجنة المكلفة بإعداد مذكرة عن مجرى الحرب لمؤتمر السلام في باريس، ثم عضواً في لجنة مشروع دستور فايمار، انقسمت حياته بين العلم والسياسة. أما عن إسهامات فيبر في النظرية السوسيولوجية على الرغم من أن كثيراً من كتابات فيبر لا تنتمي مباشرة لميدان الاجتماع، وتعالج مشكلات ملموسة أكثر مما تعالج موضوعات أساسية في النظرية العامة لعلم الاجتماع، إلا أن قدراته التحليلية الفائقة مكنته من تقديم إسهامات خطيرة للنظرية السوسيولوجية، وذلك عن طريق دراسته المتعمقة لتلك المشكلات.

توفي فيبر قبل أن يتم مؤلفه الأساسي في النظرية السوسيولوجية وهو «الاقتصاد والمجتمع». وقد كانت مهمة صعبة في سنة 1922 جمع شتات هذا المؤلف. في العام نفسه (1922)، جمعت كتاباته المنشورة في المجالات العلمية وغيرها، وظهرت في شكل مؤلفات مجمعة، منها ثلاثة تناول علم الاجتماع الديني، ومؤلف يدرس التاريخ الاجتماعي والاقتصادي، ومؤلف يعالج علم الاجتماع والسياسة الاجتماعية.⁽¹⁾

2- نقد الوضعية وتبلور نظرية الفعل الاجتماعي:

لقد بدأ ماكس فيبر مشروعه الفكري بتحدي المنهج الوضعي "Positivism" الذي ساد العلوم الاجتماعية في عصره، والذي كان يدعو إلى تطبيق نفس مبادئ وأساليب العلوم الطبيعية على دراسة الظواهر الاجتماعية. كان الوضعيون يرون أنه يمكن الوصول إلى قوانين عامة وشاملة تفسر السلوك البشري، على غرار القوانين التي تحكم الفيزياء أو الكيمياء. إلا أن "ماكس فيبر" رفض هذا المنهج بشدة، مؤكداً على أن الواقع الاجتماعي يتميز بخصائص فريدة تجعله مختلفاً جوهرياً عن الواقع الطبيعي. فالظواهر الاجتماعية ليست مجرد أحداث مادية بلا معنى، بل هي ناتجة لأفعال بشرية موجهة بالمعنى والقصد. إن البشر يعطون معاني لأفعالهم وللعالم من حولهم، وهذه المعاني هي ما يشكل جوهر الواقع الاجتماعي. لذلك، فإن مجرد ملاحظة السلوك الخارجي لا يكفي لفهم الظاهرة الاجتماعية، بل يجب على الباحث أن يسعى لفهم المعاني الذاتية التي يضيفها الأفراد على أفعالهم.⁽²⁾

2- في معنى الفعل الاجتماعي:

قدّم ماكس فيبر إطاراً نظرياً وميثودولوجياً ثورياً يركز على "الفعل الاجتماعي" "Social Action" كجوهر للتحليل السوسيولوجي. في نظر فيبر، لا يمكن فهم الظواهر الاجتماعية الكبرى إلا من خلال تفكيكها إلى الوحدات الأصغر، وهي أفعال الأفراد ذات المعنى.

يبدأ فيبر بتمييز بين "الفعل Action" و"مجرد السلوك Behavior".

فالسلوك يشير إلى استجابات تلقائية أو غريزية أو فيزيائية بحثة لا تحمل معنى مقصوداً من الفاعل.

مثال: الاصطدام بين دراجتين هو مجرد سلوك مادي ناجم عن عوامل فيزيائية بحثة.

(1) -

(2) -

والفعل الاجتماعي حسب تعريف "ماكس فيبر والذي يجب أن يكون موضوع دراسة علم الاجتماع هو أي سلوك إنساني يضفي عليه الفاعل معنى ذاتيًا والفاعل حين يقوم بهذا الفعل الاجتماعي، فإنه يضع سلوك الآخرين دائمًا في اعتباره، ويكون فعله بالتالي موجّهًا نحو الآخرين.⁽¹⁾

يحدد فيبر الفعل "الاجتماعي" على أنه ذلك النوع من الفعل الذي يكون موجّهًا نحو سلوك الآخرين. هذا التوجيه يمكن أن يكون موجّهًا نحو سلوك سابق للآخرين، أو سلوكهم الحالي، أو سلوكهم المتوقع في المستقبل.⁽²⁾ وقد اعتبر ماكس فيبر أن وحدة التحليل الأساسية للمجتمع هي "الشخص الفاعل ويقول في ذلك أن علم الاجتماع التفسيري يعتبر الفرد وفعله هو الوحدة الأساسية أو الذرة والفرد هو الشيء الوحيد الذي لديه سلوك له معنى..... أما المفاهيم الأخرى مثل الدولة أو الرابطة أو الإقطاع فإنها تشير إلى فئات معينة من التفاعل الإنساني وعلى هذا فإن مهمة علم الاجتماع هي اختزال مثل هذه المفاهيم إلى فعل يمكن فهمه أي إلى أفعال الأفراد المشتركين في النشاط.⁽³⁾

يرى ماكس فيبر على أن المجتمع ليس مجرد تجمع للأفراد، بل هو نسيج معقد من الأفعال ذات المعنى الذاتي، التي يوجهها الفاعلون نحو بعضهم البعض، ويسعى علم الاجتماع، بمنهجية الفهم التفسيري، إلى كشف هذه المعاني والدوافع لفهم الواقع الاجتماعي.

هذا التأكيد على المعنى الذاتي يجعل الفرد، بإرادته ووعيه، نقطة انطلاق أساسية لتحليل البنى الاجتماعية الأوسع. لفهم هذا المعنى الذاتي، اقترح فيبر منهجية "الفهم والتأويل والتفسير.

3- التصور المنهجي ماكس فيبر:⁽⁴⁾

يعد ماكس فيبر من أهم المؤسسين الذين تجاوزوا المقاربة الوضعية (التي تتعامل مع الظواهر كأشياء) نحو تأسيس "سوسيولوجيا الفهم. وقد حدد فيبر منهجه بوضوح في كتابه "الاقتصاد والمجتمع" قائلا: "نسعى علم الاجتماع... العلم الذي يأخذ على عاتقه تفهم النشاط الاجتماعي بالتأويل، بتأويله ثم بتفسير مساره ومفاعيله تفسيراً سببياً"

وبناءً على هذا التعريف، ينتظم التصور المنهجي لفيدر وفق ثلاث خطوات جوهرية ومتداخلة:

أ- الفهم (Verstehen): حيث يعتبر فيبر أن "المادة الأولية في علم الاجتماع هي فعل الفرد". خلافاً للعلوم الطبيعية التي تكتفي بملاحظة الانتظام الخارجي، تسعى السوسيولوجيا للنفوذ إلى "المعنى الذاتي" الذي يضفيه الفاعل على سلوكه. الإنسان كائن واعي، وسلوكه ليس مجرد رد فعل ميكانيكي، بل فعل له قصيدة ودلالة.

-(1)-

-(2)-

-(3)-

-(4)-

ب- التأويل: وهو وضع هذا الفعل الفردي ضمن سياقه المجتمعي واستجلاء دلالاته الرمزية. الفهم ليس مجرد حدس، بل هو عملية عقلية تهدف لإعادة بناء المنطق الداخلي للفاعل. وهنا يشدد فيبر على ضرورة "الحياد الأخلاقي" والموضوعية العلمية، وفصل "أحكام القيمة" (ما يجب أن يكون) عن "أحكام الواقع"

ج- التفسير السببي: الفهم لا يلغي التفسير، بل يمهد له. لكن السببية عند فيبر تختلف عن السببية الحتمية في الماركسية. يرفض فيبر إرجاع الظواهر لسبب وحيد (مثل العامل الاقتصادي)، ويؤكد على "التعددية السببية". الظواهر الاجتماعية (مثل الرأسمالية) هي نتاج تشابك معقد لعوامل اقتصادية، وثقافية، ودينية (مثل الأخلاق البروتستانتية). ولضبط هذا البحث العلمي، ابتدع فيبر أداة "النمط المثالي (Ideal Type)"، وهو نموذج عقلي مجرد لا يطابق الواقع تماماً، بل يُستخدم كأداة قياس لمقارنة الواقع به وفهم انحرافاته وخصائصه المميزة

4- الأنماط المثالية للفعل الاجتماعي:

ميز "فيبر" بين أربعة أنماط أساسية من الفعل الاجتماعي وهي: (1)

أ- الفعل العقلاني الهادف: هو الفعل الذي يوجهه الفرد لتحقيق هدف معين، من خلال الاختيار الواعي والمدرّوس لأفضل الوسائل المتاحة بناءً على حساب النتائج المتوقعة والعواقب، وأحياناً مع مراعاة العواقب الجانبية الخصائص الأساسية: يتسم هذا النوع من الفعل بالعقلانية في اختيار الوسائل والغايات. الفاعل هنا يقوم بتقييم دقيق للموقف، يوازن بين الوسائل المختلفة لتحقيق غايته، ويسعى إلى الكفاءة والفعالية بأقل تكلفة أو بأقصى فائدة. إنه فعل قائم على المنطق العملي والتوجه نحو تحقيق نتيجة ملموسة

ب- الفعل العقلاني القيمي: هو الفعل الذي لا يعنى بالنتائج الخارجية أو حساب الفعالية بقدر عنايته بالتمسك بقيمة مطلقة (أخلاقية، جمالية، دينية، سياسية) يؤمن بها الفاعل إيماناً عميقاً، بغض النظر عن مدى عقلانية الوسائل أو النتائج المترتبة عليها.

الخصائص الأساسية: الدافع الأساسي هنا ليس تحقيق مكسب مادي أو تجنب خسارة شخصية، بل هو الوفاء لمبدأ أو قيمة عليا يعتبرها الفاعل واجبة أو مقدسة. العقلانية تكمن في الاتساق مع القيمة نفسها، وليس في العواقب المتوقعة. الفاعل مستعد لتحمل تكاليف أو مخاطر كبيرة، طالما أن فعله يتوافق مع مبادئه الأساسية

ج- الفعل العاطفي أو الوجداني: هو الفعل الذي ينبع مباشرة من حالة شعورية أو عاطفية قوية ومباشرة، مثل الغضب، الفرح، الخوف، الحب، أو الانتقام، ويفتقر إلى التفكير العقلاني أو حساب النتائج

الخصائص الأساسية: يتميز هذا الفعل بالاندفاع والغياب النسبي للتفكير المنطقي أو حساب العواقب. يكون استجابة فورية لمثير عاطفي، ولا يهدف إلى تحقيق غاية بعيدة المدى أو الالتزام بقيمة معينة، بل هو تعبير تلقائي وغير مقصود عن الحالة الداخلية للفاعل

د- الفعل التقليدي: هو الفعل الذي يستند إلى العادات المتجذرة والتقاليد المتبعة منذ زمن طويل، ويتم تنفيذه بشكل شبه تلقائي ودون تفكير واعٍ في الغاية أو القيمة أو العواطف

الخصائص الأساسية: يتميز هذا الفعل بالروتين والتعود، ويتم تنفيذه لأنه "دائمًا ما تم فعله بهذه الطريقة". الدافع ليس عقلائيًا (سواء في الغايات أو القيم) ولا عاطفيًا، بل هو قوة العادة التي توجه السلوك. غالبًا ما لا يدرك الفاعل سبب قيامه بالفعل، بل يتبعه لأنه جزء من النمط الاجتماعي المعتاد والمقبول

مما سبق نستنتج أن هذه الأنماط الأربعة لفهم الفعل الاجتماعي إطارًا تحليليًا قيمًا لعلماء الاجتماع. ورغم أن الأفعال البشرية في الواقع غالبًا ما تكون مزيجًا معقدًا من هذه الأنماط، إلا أن تحديد هذه الأنواع المثالية يسمح بتحليل الدوافع الأساسية الكامنة وراء السلوك الإنساني، وتقديم رؤى أعمق في ديناميكيات الحياة الاجتماعية.

النموذج المثالي

يرى "فيبر" أنه لكي نستطيع تحليل الظواهر الاجتماعية وهي موضوع علم الاجتماع لا بد أن تكون لدينا أداة نقوم بالتحليل على أساسها تسهل لنا عملية المقارنة بين هذه الظواهر وبعضها البعض، وهذه الأداة هي ما اسمها فيبر بالنماذج أو الأنماط المثالية الخاصة. فالاربعة أنواع من الأفعال الاجتماعية السابق الحديث عنها تمثل نماذج مثالية أو خالصة للفعل الاجتماعي بمعنى أنها لا توجد في الواقع بهذه الكيفية ولكنها مجرد تصورات عقلية مستمدة من الواقع فعلا ولكنها لا توجد فيه بهذه الكيفية.

وقد انطلق "فيبر" بعد تصنيفه للفعل الاجتماعي الى تصنيف كافة الظواهر في المجال الاجتماعي، فقد صنف بناء على ذلك مثلا: أنماط السلطة أو السيطرة فرأى أن هناك سيطرة أو سلطة عقلانية وسلطة تقليدية وسلطة كاريزمية، كما ان تصنيف المجتمعات، وكذلك تصوره لمراحل التطور التاريخي للمجتمعات الغربية قد اعتمد أيضا على تصنيفه للفعل الاجتماعي.

فالصفة الرئيسية التي عاش فيها فيبر كما يقول هي صفة العقلانية أو الأفعال العقلانية التي ترتبط بالأهداف، والمشروعات الاقتصادية في النظام الرأسمالي هي مشروعات عقلانية كما أن سيطرة الدولة على المجتمع تكون أيضا سيطرة عقلانية عن طريق البيروقراطية.

وبعبارة أخرى يعد مفهوم "النموذج المثالي" عند ماكس فيبر حجر الزاوية في منهجيته لتحليل الظواهر الاجتماعية، حيث يمثل أداة عقلية مجردة لا تطابق الواقع تماماً بل تُستخدم كمسطرة قياس لمقارنة وفهم الظواهر المعقدة وتصنيفها، مثل أنواع السلطة الثلاثة والبيروقراطية. وقد وظّف فيبر هذه الأداة المنهجية ببراعة في دراسته الرائدة "الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية"، مبيّناً العلاقة الجدلية العميقة بين الدين والاقتصاد؛ فقد أوضح أن القيم الكالفينية—وتحديداً مفهومي "النداء" و"الزهدية الدنيوية"—لم تدفع الناس للعزلة، بل حولت العمل الدنيوي إلى واجب مقدس وعلامة على الخلاص الإلهي. هذا الاعتقاد حوّل "الفعل العقلاني القيمي" (الدافع الديني)

بشكل غير مقصود إلى سلوك اقتصادي منظم وتراكم للثروة، مما مهد الطريق لنشأة الرأسمالية الحديثة وترسيخ "العقلانية" كسمة جوهرية للمجتمع الغربي الحديث.

الإسهامات الأنثروبولوجية في بلورة النظرية الوظيفية (مالينوفسكي وراذكليف براون)

1- جذور الوظيفية:

تعود الوظيفية في جذورها إلى أعمال كلٍّ من هربرت سبنسر H. Spencer وإميل دوركايم E. Durkheim بالاعتماد على التصور التطوري والعضوي، درس لأول مرة "سبنسر" وظيفة المجتمع من منطلق بيولوجي، واعتبر المجتمع أشبه بكائن حيٍّ حيث أن الأجزاء التي تكوّنه تشارك في حفظ الوظيفة العامة لهذا الكائن. أما دوركايم الذي تأثر بأفكار "سبنسر" والذي انتقده بشكل كبير، فيذهب بعيداً في تحليله منطلقاً من مفهوم "الوظيفة"، واستطاع أن يضع المبادئ الأولى للوظيفية في كتابه "في تقسيم العمل الاجتماعي" لذا اعتبره مالينوفسكي الأب الأول للوظيفية.

فقد بيّن كيف أن تقسيم العمل وظيفة أساسية تتمثل في ضمان التماسك بين الأفراد فيما بينهم، متجاوزاً النظرة الاقتصادية التي تعتقد أن تقسيم العمل يزيد في الإنتاج فقط (الاستجابة لحاجة وظيفية فقط)، فدوره عند دوركايم تهمين التضامن الاجتماعي الذي هو عامل أساسي في ربط العلاقات الاجتماعية، وبالتالي ضمان وظيفة السير الحسن للمجتمع في عمومته، فهو يقرب مفهوم الوظيفة بالمعنى البيولوجي من مفهوم الحاجة كما فعل المؤسسون الأوائل للوظيفية لهاذا اعتبروه الرائد الأول لهم.⁽¹⁾

2- الاتجاهات الثلاث للوظيفية:

نجد في مجال علم الاجتماع ثلاث اتجاهات أو أنواع للوظيفية:

- وظيفية "مالينوفسكي وراذكليف براون"، والتي تُسمى الوظيفية المطلقة *Fonctionnalisme absolu*.

- وظيفية تالكوت بارسونز، والتي تُدعى البنائية الوظيفية *Structuro Fonctionnalisme*.

- وظيفية ميرتون، والتي سمّاها هو نفسه بالوظيفية المتوسطة المدى *fonctionnalisme de moyenne portée* أو النوعية المتوسطة أو النسبية.⁽¹⁾

3-1 الوظيفية المطلقة:

ظهور الوظيفية في بدايتها كان من خلال أعمال كلّ من برانسوا مالينوفسكي B. Malinowski و رادكليف براون R. Radcliffe Brown. ورغم اختلافهما أحياناً في بعض القضايا خاصة ما يتعلق بالحاجة، فقد درسا الظواهر الثقافية منها تبعاً لوظيفتهما.

بالنسبة لمالينوفسكي كل نشاط يشغل وظيفة تُشبع حاجة محددة. فالحاجة والوظيفة مفهومان غير قابلين للفصل بينهما، فهما يشكّان وحدة متجانسة لا يمكن فصل الواحدة عن الأخرى. ولا وجود لعنصر غير نافع أو عشوائي، فإن وجد هذا فيعني انه يستجيب لحاجة محددة وبالتالي وظيفة ما تضمن حسن سير الوظيفة العامة.⁽²⁾

أولاً: إسهامات برونيسلاف مالينوفسكي

برونيسلاف مالينوفسكي (1884-1942) هو عالم أنثروبولوجيا بولندي الأصل، يعتبر أحد مؤسسي المنهج الوظيفي في الأنثروبولوجيا. اشتهر مالينوفسكي بدراساته الميدانية المكثفة في جزر تروبرياند Trobriand Islands في بابوا غينيا الجديدة، حيث اعتمد بشكل كبير على الملاحظة بالمشاركة، حيث يندمج كلياً مع المجتمعات المدروسة، ويتقاسم حياتهم اليومية لملاحظة السلوكيات والأفعال بدقة.

ويرى مالينوفسكي أنه لا يمكن الوصول إلى فهم عميق وشامل لثقافة المجتمعات إلا من خلال الاحتكاك والمعايشة اليومية للسكان. ويؤكد مالينوفسكي على ضرورة تعلم لغة المجتمع المدروس لفهم المعاني الرمزية للسلوكيات والمناسبات؛ فهذا الاندماج الكامل يساعده على فهم الثقافة وتحليل مكوناتها وربطها ببعضها البعض. يعتبر مالينوفسكي أحد آباء الأنثروبولوجيا الحديثة، ليس فقط لفضله في تطوير النظرية الوظيفية، بل لتأسيسه المنهج الإثنوغرافي القائم على الملاحظة بالمشاركة الطويلة والمتعمقة في الميدان. ترسخت أفكاره من خلال دراساته الشهيرة في جزر تروبرياند بغرب المحيط الهادئ، والتي أثمرت عن كتابه الخالد 'بحارة غرب المحيط الهادئ'.

المفاهيم الأساسية:

يعرف منهج مالينوفسكي بالوظيفية النفسية أو البيولوجية لأنه ينظر إلى الثقافة أنها كل ما يحتويه المجتمع من عقائد ومبادئ وأدوات تشكل الجهاز الكلي للإنسان، والذي يجد نفسه مجبراً على التكيف معه وتحقيق حاجاته الضرورية للبقاء والاستمرار.

ويوضح مالينوفسكي أن الثقافة هي نسق متكامل ومتضامن العناصر، ويهتم بالوظائف والأدوار التي تقوم بها هذه العناصر لضمان بقاء واستمرار النسق.

(1) -
(2) -

نظرية الحاجات: طور مالمينوفسكي نظرية شاملة حول الحاجات الإنسانية، حيث يرى أن الحاجات الأساسية (مثل الأكل والشرب والمأوى والتكاثر) هي عناصر ثقافية أساسية تختلف حسب الظروف الوظيفية، ودورها هو ضمان استمرار المجتمع.

-صنف مالمينوفسكي الحاجات البشرية إلى ثلاثة أنواع رئيسية :

-الحاجات الأولية: هذه هي الحاجات البيولوجية التي لا غنى عنها لبقاء الفرد والجنس البشري، مثل: التغذية، والتكاثر، والراحة الجسدية (الحماية من العوادي البيئية)، والأمان، والحركة، والنمو. على سبيل المثال، تعمل عادات الأكل، وطرق الصيد والزراعة، ونظم الزواج والعائلة، على تلبية هذه الحاجات.

الحاجات الثانوية أو المشتقة: تنشأ هذه الحاجات من ضرورة تنظيم المجتمع والاستجابة لمتطلبات الحاجات الأولية في سياق ثقافي معقد. تشمل: الحاجة إلى التنظيم الاقتصادي، والنظم القانونية، والتعليم، والأدوات والتقنيات. مثلاً، تلبية نظم التوزيع (مثل الكولا رينغ في تروبوياوند التي تنظم تبادل الهدايا الثمينة عبر الجزر) الحاجة إلى التنظيم الاقتصادي والتعاون الاجتماعي بين المجتمعات المختلفة.

-الحاجات التكاملية أو المتكاملة

تتعلق هذه الحاجات بالحفاظ على تماسك المجتمع ووحدته الروحية والنفسية. وتشمل: الحاجة إلى الدين، والسحر، والأسطورة، والاحتفالات. تقدم هذه الجوانب للناس معنى للحياة، وتقلل من القلق، وتعزز التكافل الاجتماعي في مواجهة المجهول والمخاطر

-مفهوم المؤسسة: بالنسبة لمالمينوفسكي، تعد المؤسسة هي الوحدة الأساسية للتحليل الثقافي والاجتماعي. تعرف المؤسسة بأنها نظام منظم من الأنشطة البشرية التي تنظم حول هدف محدد (وظيفة معينة) وتشتمل على أفراد، وقواعد، ومعدات مادية، وأهداف رمزية. على سبيل المثال، العائلة هي مؤسسة تهدف إلى التكاثر والتنشئة، ونظام القضاء هو مؤسسة تهدف إلى حفظ النظام الاجتماعي وتطبيق القوانين. وكل مؤسسة تساهم بشكل مباشر أو غير مباشر في تلبية حاجة أساسية أو مشتقة.

ثانياً: إسهامات ألفريد رادكليف براون

ألفريد رادكليف براون (1881-1955) هو عالم أنثروبولوجيا بريطاني، يعتبر مؤسس الوظيفة البنائية في الأنثروبولوجيا. ساهمت إسهاماته في بلورة وتدعيم الفكر البنائي وتوجيه الإثنولوجيا نحو الدراسات المتزامنة.

أجرى براون أبحاثاً ميدانية هامة في جزر أندامان الأسترالية، نشرها في كتابه 'سكان جزر أندامان' عام 1922.

دراسة سكان جزر أندامان: (1)

يمكن القول إن دراسة "براون" الشهيرة عن سكان جزر أندمان هي أساس دراسته بالتحقيق الواقعي لافتراضات وفروض صاغها دوركايم تتعلق بمفهوم الوظيفة، ولعل أهمها أن وظيفة الطقوس هي تحقيق التضامن الاجتماعي، والإسهام في استمرار المجتمع والمحافظة على بقائه وتوازنه.

يقول براون إنه عندما يتصالح طرفان من سكان شمال جزر أندمان فإنهما يقيمان احتفالاً راقصاً حيث ينقسم الراقصون إلى فريقين يمثل أحدهما الفريقين مشاهد العداء نحو الطرف الآخر والطرف الآخر يقبل ذلك ولا يظهرون الخوف ولا الحقد إزاء المعاملة التي يلا قونها... وأخيراً يتلاشى الغضب ويتم التعبير عن المساوى وتنتهي العداوة.

ويعلق على ذلك "براون" أن الغرض من الاحتفال هو إحداث تغيير في مشاعر كل طرف نحو الطرف الآخر فمشاعر العداء يحل محلها مشاعر الصداقة والتضامن. ويعتقد أن أثر الاحتفالات على الغضب والمشاعر العدائية تختفي عندما يتم التعبير عنها بحرية. فكان للوظيفة الاجتماعية للاحتفال هو عودة حالة التضامن بين الجماعتين المحليين.

مفهوم البناء الاجتماعي:

تشير كلمة "البناء" بالضرورة إلى وجود نوع من التنسيق والترتيب بين الأجزاء التي تدخل في تكوين الكل، مثل بناء الجملة من عبارات، أو بناء البناية. وعلى هذا الأساس، يتطلب البناء وجود علاقات وروابط معينة بين هذه الأجزاء لتجعل منها كلا متماسكا ومتميزا. وفي سياق البناء الاجتماعي، تكون الوحدات الجزئية التي تدخل في تكوينه هي الأشخاص أعضاء المجتمع، حيث يحتل كل منهم مركزا معيناً ويؤدي دورا محددا في الحياة الاجتماعية. يفرق عالم الأنثروبولوجيا رادكلف براون بين مفهومي الفرد والشخص.

فالإنسان كفرد: هو عبارة عن كائن عضوي بيولوجي؛ أي مجموعة هائلة من الجزئيات التي تنتظم في بناء مركب تجري في داخله أفعال وعمليات وتغيرات جسمية أو نفسية، وهو موضوع دراسة علماء النفس والفسولوجيا. أما الإنسان كشخص: فإنه عبارة عن مجموعة من العلاقات الاجتماعية؛ فهو يعرف بأدواره ومراكزه المتعددة، ككونه مواطناً، زوجاً، أباً، ممارساً لمهنة، وعضواً في جماعة دينية، وهكذا.

أنواع البناء الاجتماعي :

يميز براون بين نوعين من البناء.

- البناء الواقعي: الذي يقصد به البناء من حيث هو حقيقة موجودة بالفعل يمكن ملاحظتها مباشرة، وهو مجموعة العلاقات القائمة فعلاً بين عدد من الأشخاص في مكان وفترة محددين.

-الصورة البنائية: (أو الصورة العامة أو السوية)، وهي تمثل خلاصة العلاقات بعد تجريدها من الأحداث الجزئية والتغيرات الواقعية، لتمثل النمط النظري العام المستقر لهذا البناء.

يرتبط التمييز بين البناء الواقعي والصورة البنائية ارتباطاً وثيقاً بفكرة استمرار البناء المجتمعي في الزمان. فالبناء الواقعي يتغير بسرعة وباستمرار لأنه يعكس الفعلية وتباين حالات الأنساق؛ ومن ثم، فإن الصورة البنائية هي التي تمثل القضايا التحليلية النظرية التي تتم معالجتها لفهم استكمال واستمرار البناء، وهي المنطلق لبحوث الديناميكا الاجتماعية (دراسة التغير الاجتماعي)

تأثير المنظور التطوري

لقد قبل رادكلف براون بالمنظور التطوري الذي صاغه سبنسر، على أساس أن تطور صور الحياة الاجتماعية العضوية من البسيط إلى المركب، يمكن أن يكون بمثابة أداة تحليلية ذات قيمة بالغة. ومن أهم مزايا هذا المنظور أنه يجعلنا ننظر إلى صور العلاقات الاجتماعية بوصفها تنطوي على عمليات توافقية (تكيفية) مع الظروف البيئية المحيطة، وينطبق ذلك على فهم عمل الأنساق الاجتماعية.

مفهوم الوظيفية:

لقد تقبل رادكلف براون تعريف دوركايم لوظيفة النظام الاجتماعي بأنها "التناظر بين هذا النظام وبين حاجات الكائن العضوي الاجتماعي"، إلا أنه رأى ضرورة إدخال تعديلات عليه لإزالة الغموض؛ حيث اقترح أن أية محاولة لاستخدام مفهوم الوظيفية في العلم الاجتماعي تفترض وجود شروط ضرورية لوجود الكائنات الحية (المجتمع)، والتي يمكن اكتشافها بالبحث العلمي. ولذا، عرف الوظيفة الاجتماعية بأنها "نصيب النشاط الاجتماعي الجزئي في النشاط الاجتماعي الكلي الذي هو جزء فيه". فالوظيفة التي تؤديها أية ظاهرة أو عنصر سلوك تنعكس في دورها في الحياة الاجتماعية بأسرها، والتي تعبر عن البناء الاجتماعي الكلي، وتصدر عنه. ويشمل "النسق الاجتماعي الكلي" كلا من البناء الاجتماعي وجميع النشاط والممارسات والعادات الاجتماعية التي يتحدد بها وجود وكيان البناء.

أهم الانتقادات التي وجهت له:

تدخل الانتقادات التي وجهت لنظريات "براون" ضمن الانتقادات التي وجهت لعلماء البنائية الوظيفية. وقد وجه للنظرية الوظيفية مجموعة من الانتقادات لعل أهم هذه الانتقادات هي:

- إهمالها للصراع والتغير الاجتماعي وتركيزها على التوازن والتكامل، وتأثير أيضاً انتقادات حول كونها نظرية أصلاً لها طابع متميز وإنما هي طريقة لتحليل النظم والظواهر الاجتماعية.

- يُعدّ "براون" يركز اهتمامه على دراسة المجتمع أكثر من تركيزه على الحضارة نفسها.

- بعض نتائجها قامت على التخمين وذلك مثل دراسة "براون" لسكان جزر أندمان.

- لم يتفق الوظيفيون حول تحديد مفهوم الوظيفية بطريقة واضحة حيث يركز "براون" على الدور و مالمينوفسكي على الحاجات أما بارسونز فقد ركز على الفعل وغير ذلك.

